

Gaylord

PAMPHLET BINDER

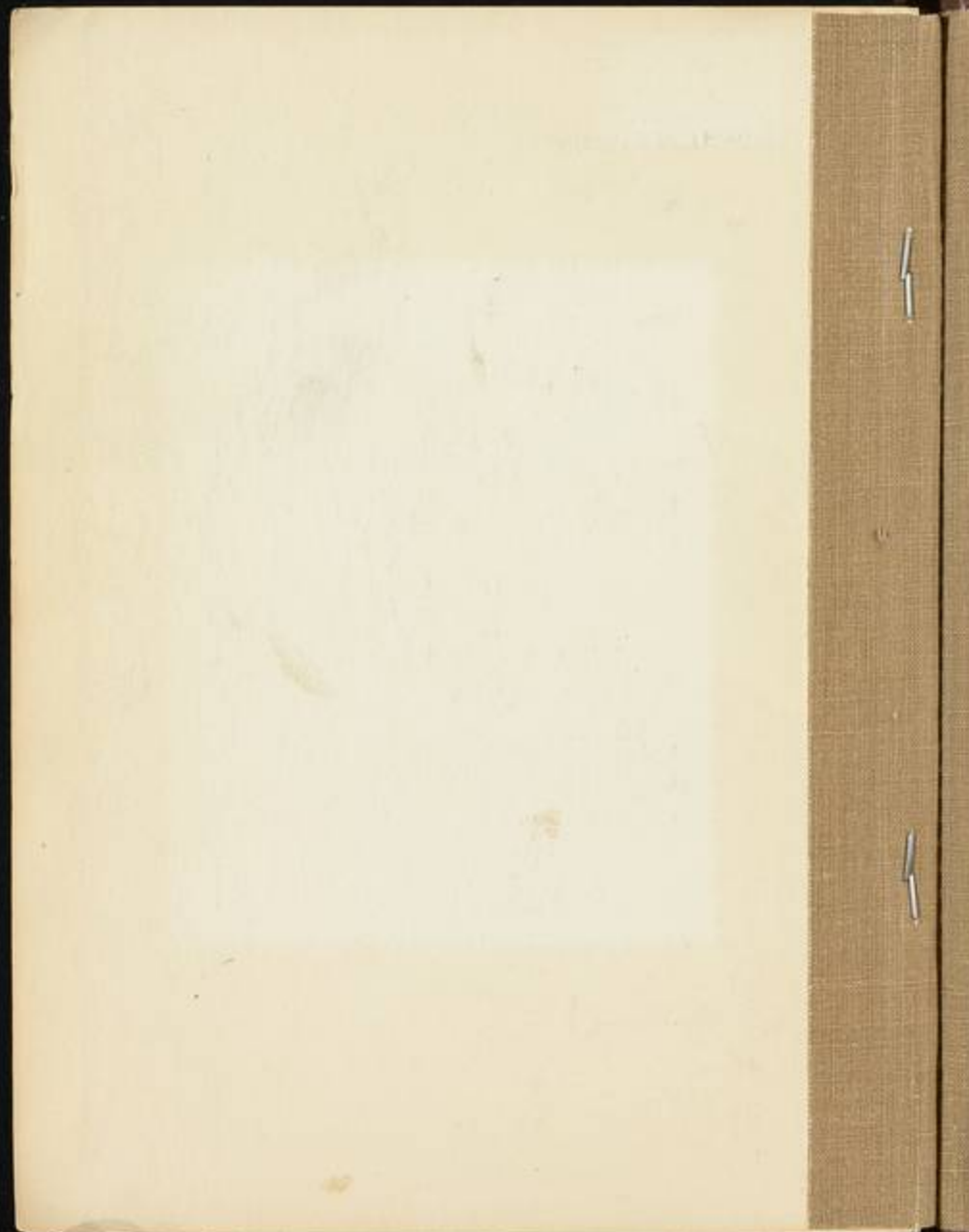
Syracuse, N. Y.

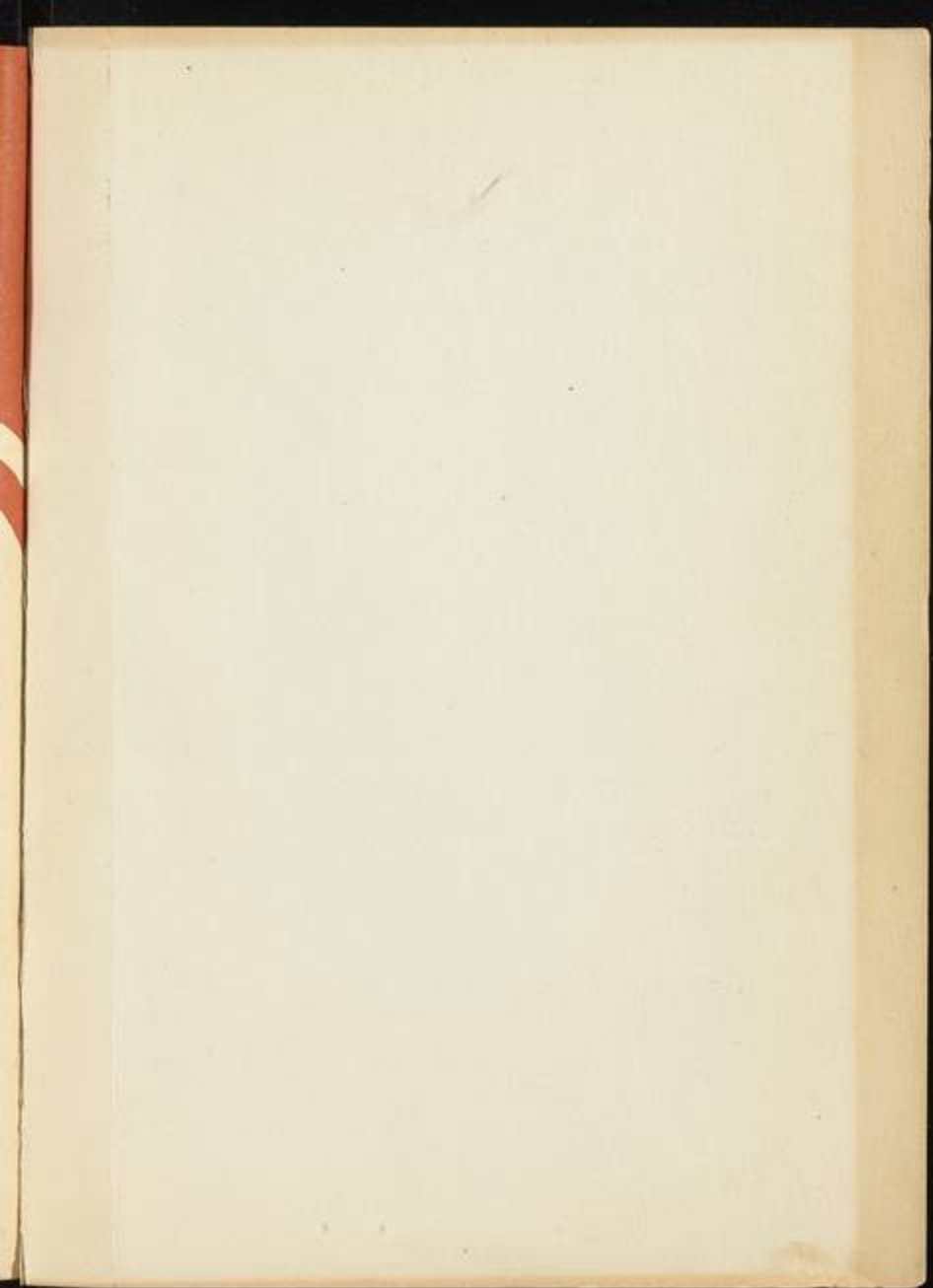
Stockton, Calif.

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES





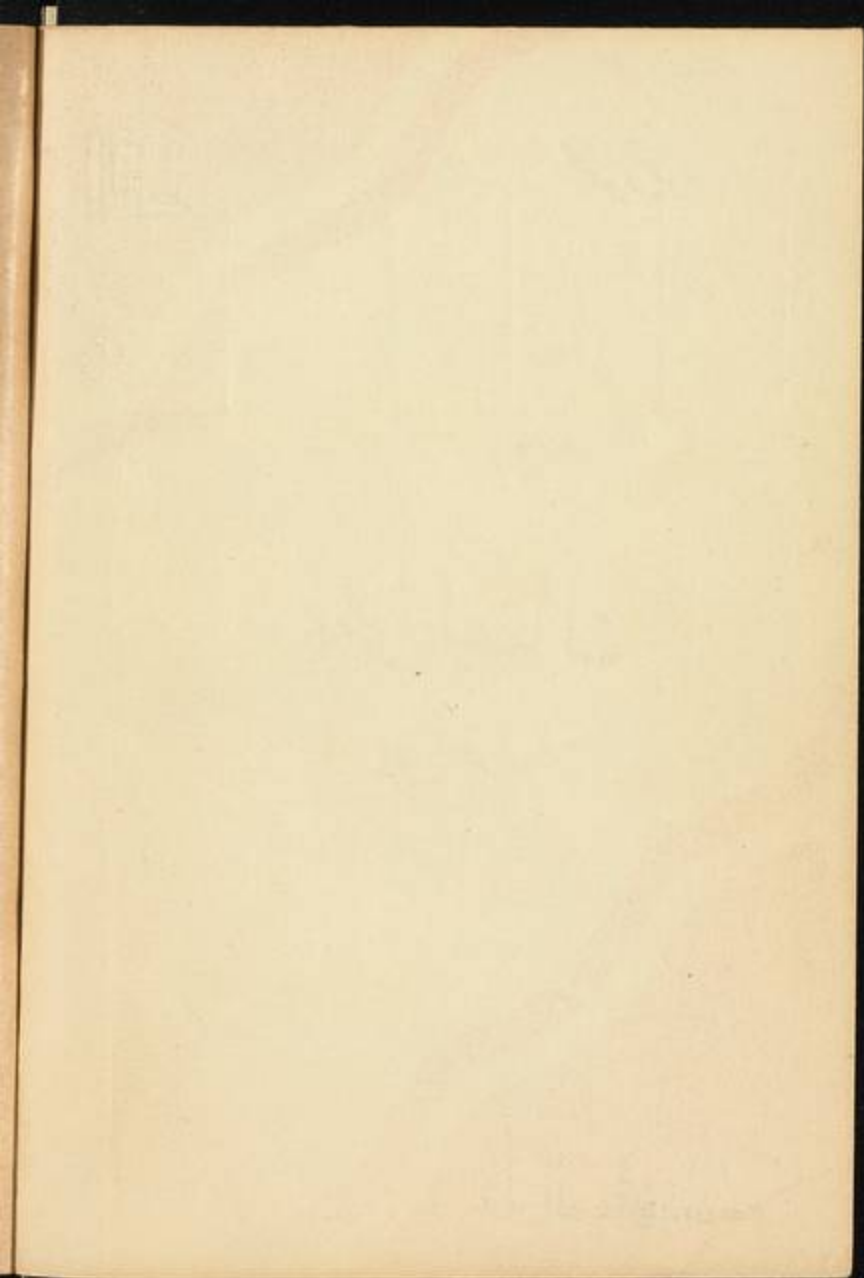


اقرأ

محمود تيمور

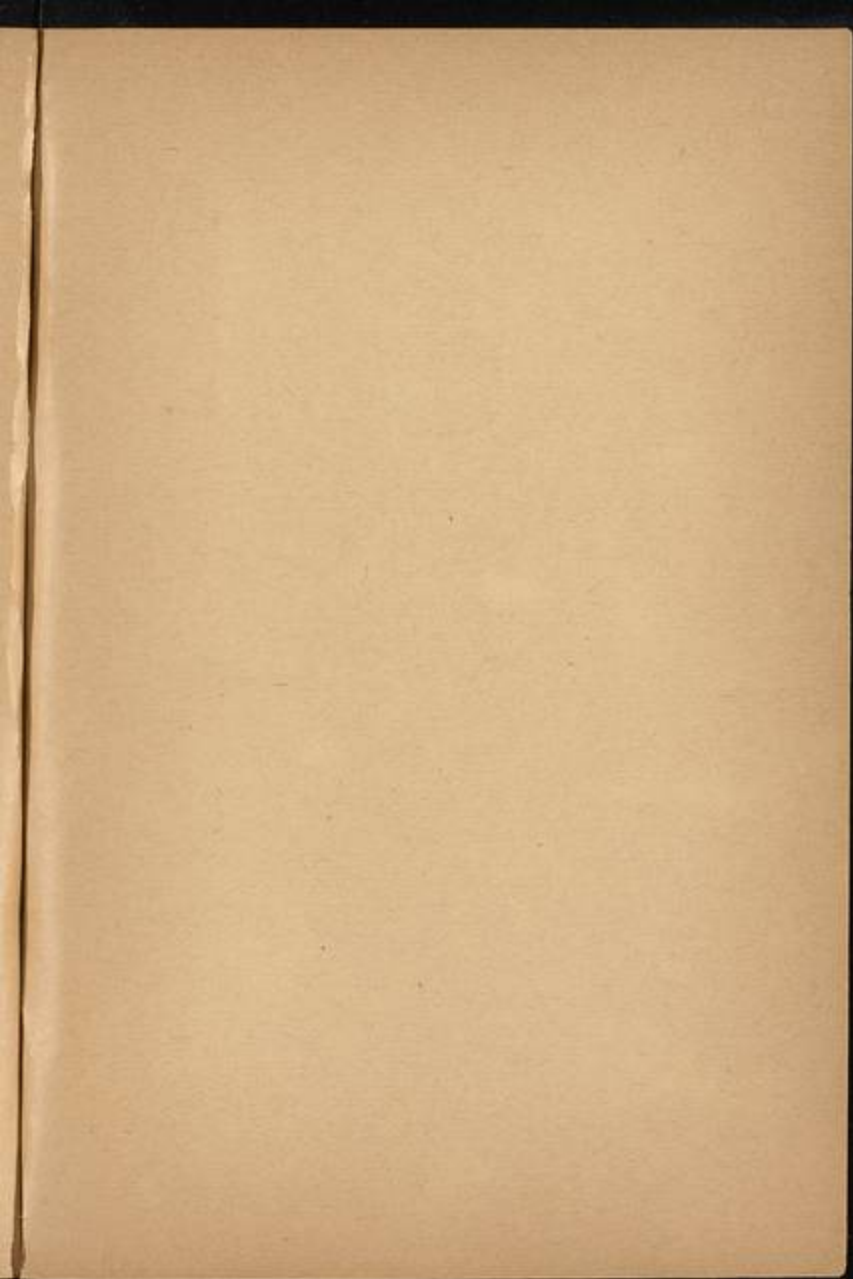
أبو علي الفنّان
وقصص أفرى

دار المعارف بمصر



أبو علي الفنّان

وقصص أفرى



محمود تيمور

أبو علي الفنّان
وقصص أخرى

اقرا
١٣٦
دار المعارف بمصر

893.77136

0

اقرا ١٣٦ - أول أبريل ١٩٥٤



185/5F

جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

أبو علي الفنان

أدرکه الیتم من طرفیه ، إذ قضی والداه جمعاً ،
وما برح فی طفولته یدرج ، فکفله من ذوی قرابته عمه ،
إلی منزله أوی ، وفی کنفه عاش ...

ذلك هو الفقی « حسن عبد الکریم » - الملقب
بـ « أبی علی » - وهو قزم شائه الخلقه ، مهزول الأوصال ،
مدید الیدین ، یدو وجهه مستطیلاً أعجف ، متدلی
الأنف ، مقلتاه فی محجرَیْهما غائرتان .

دخل الفقی إحدی المدارس الابتدائیة ، وظل یکافح
فیها حتی بلغ السنه الرابعه ، فإذا هی عقبه حیاله کثود ،
وأعیاه أن ینال الشهاده الابتدائیة ، فلم یجد عمه بدّاً من
أن یشرکه فی عمله ، وكان عمه بدّاً ، فألحقه بحانوته ،
یتولی البیع ، ویدوّن حساب المتجر .

وأمضى الفقی أيامه هانئاً بحیاته ، مطئنّاً إلی سعبه ،
یختلف إلی المسجد لیؤدی فیهِ الصلوات ، ولا یعرف له

مثابةً غير البيت والحانوت ، فرضى عنه عمه الرضا كلّه ،
 يدعو له ، ويُسنى عليه .

وكان بين المتردّدين على الحانوت شاب يدعى «عبد الواحد»
 لا عمل له ، تقوته أمّه ، يقتل نهاره تسكعاً بين الأندية
 والحوانيت ، ويحبي ليله تنقلا بين الملاهي ودور التمثيل .
 تعارف الفستيان : «أبو علي» و «عبد الواحد» ،
 يجدهما الحانوت ، في اليوم بعد اليوم ، حتى استوثقت
 بينهما الألفة ، وطابت لهما المؤانسة ، فتلازما يقصران
 بحديثهما أمدّ النهار الفارغ ، ويجلوان عن نفسيهما صدأ
 السامة والملال .

ولم يكن «عبد الواحد» يعدو بحديثه دائرة التمثيل ،
 فإن حديثه فيه ذو شجون ، وإنه فيه لطويل الباع . . .
 و «أبو علي» لا يملك في هذا الحديث إلا أن ينصت ،
 مشبوب النفس ، مشغوف الفؤاد ، يقول : هل من مزيد ؟
 فاستطاع بظهر الغيب أن يعرف شأن المسرح كله ،
 يتنسم جره ، ويتنورّ ضربه ، ويتمثل ماله من أطياف
 وتهاويل .

ووفاه صاحبه بما تنشره الصحف والمجلات من
حديث المسارح وأنباء التمثيل ، وما تعلق به يده من روايات
وأقاصيص ، منها المطبوع ومنها المخطوط والمنسوخ . فأقبل
عليها الفتي ينهل ويستمرئ ، وكلما أمعن في القراءة ،
ازداد من شوق وطموح .

وبينما كان الفتيان يتناقلان الحديث ذات يوم ،
إذ قال « أبو علي » لصاحبه :

وددت أن أشهد التمثيل مرة . . .

— وماذا يمنعك ؟

— ربما أبى ذلك عمي .

— عمك يثق بي ، فهل تحب أن أستأذنه لك ؟

فهلل وجه « حسن » وهو يقول :

يسرنى أن تفعل .

وانصرف « عبد الواحد » يتفقد عم الفتي ، حتى
وافقه في حانوت جار له . فما إن فاتحه في الأمر حتى
أنكر الرجل عليه أشد الإنكار . . . كيف يُجيز لابن
أخيه أن يؤم هذه الملامى ، وهي بدعة ومضلة ؟

فلبث القتي يزيرين للرجل مشاهدة التمثيل ، ويصفئه ،
بأنه أصبح في زمننا الحاضر وسيلة تأديب وتهذيب ،
منه تُنتزع الحكمة ، والموعظة الحسنة ، وبه تُكتسب
الفضيلة ، ومكارم الأخلاق .

ولم يشأ الرجل أن يتأدى في إنكاره ، حتى لا يُتهم
بالغفلة والجهالة والبله ، فقبل بعد لاجحة وإلحاف أن
يأذن « لحسن » في مرافقة « عبد الواحد » إلى إحدى
دور التمثيل ، من باب العلم بالشيء ، على أن تكون مرة
لا تتبعها مرة . . .

فانطلق « عبد الواحد » إلى صاحبه يزف إليه البشرى ،
فطار بها فرحاً ، وعجل إلى عمه يطبع على يده قُبلة
الشكر ، وانتحى بصاحبه يسأله :
متى موعدنا ؟

— الليلة . . . في الساعة التاسعة .

وبعد أن فرغ القتي من أداء صلاة العشاء ، خرج
إلى صديقه « عبد الواحد » يسايره إلى مسرح « جمعية
ترقية التمثيل » حيث تعرض رواية « الممثل » . . . وفي

بعض الطريق كان «عبد الواحد» يبسط لرفيقه موضوع الرواية ، ويهيئ ذهنه لكل ما سيراه .

ودخلا قاعة المسرح ، دون أن يؤديا رسم الدخول ، لا يعترض طريقهما أحد ، إذ كان «عبد الواحد» معروفاً لحراس الباب ، يبادلهم تحية الأخدان للأخذان .

واتخذ «حسن» مقعده في القاعة ، يشع بين جنبيه الطرب والمراح . . . فلما انكشفت الستارة ، وأخذ الممثلون يتجلون في المواقف ، شرهت عين الفتى إلى المنصة ، وظل يرنو ، جيتاش النفس ، من حيرة وإعجاب ! وفي ترويحة الفصل الأول مضى «عبد الواحد» برفيقه إلى دخيلة المسرح ، ليريه الممثلين عن كتب . فكلما مرّ واحد منهم بالفتى راعته بزته ، وشارته ، وحملق فيه ، حتى ليكاد يستوقفه ، أو ليكاد يلتمسه .

وإذ عاد إلى مقعده من القاعة ، يستأنف مشاهدة الرواية ، مال على «عبد الواحد» يهمس في أذنه : لا أكاد أصدق أن هؤلاء الممثلين من البشر ! فابتسم صاحبه يسأله :

ولماذا؟

— ألا تحس بشيء غريب . . . منهم ينبعث ، وفيهم

يتوضّع؟

— أى شيء غريب تعنى؟

— ليس فى مستطاعى أن أصفه لك بلسانى ، ولكنى

أحسّه بروحى . . .

وتمت الرواية فصولاً ، فصدّر الفتى عن المسرح

يقول لصاحبه « عبد الواحد » :

أفى وسعك حقاً أن تشهد التمثيل كل ليلة؟

— هذا فى وسعى ، ولكنى لا أفعل . . .

— إنك لسعيد . . . ولكنك لا تقدر ما أنت فيه من سعادة!

٢

تسنّى للفتى « حسن » أن يحضر التمثيل مرّات . . .

وتعاقبت عليه الأيام من بعد ، يرّين على نفسه

انقباض ونفرة من الناس ، ويحبو نشاطه فى القيام على

شئون الخانوت ، ويستسلم في يقظته لأحلام وتصورات ،
 فإذا أزعجه عنها أحد صاح به الفتى في سخط وحنق .
 ونظر إليه عمه يوماً وهو في غمرة من ذهوله ، وحموله ،
 فقال له يلاطفه :

أتجدك مريضاً يا «حسن» ؟ ألا ترجع إلى البيت
 تستريح فيه ؟

ففتى الفتى عن نفسه الممرض ، في خشونة وجفوة ،
 وأصر على أن يبقى في الخانوت يزاول عمله المألوف .
 وراب الرجل أن الفتى يتخلف عن البيت بعض
 الليل دون أن يؤذن له ، فذهب به الظن إلى أن الفتى
 يقضى أماسيته في دور التمثيل ، فحفظ عليه السهر خارج
 البيت ، وأحكم حوله رقابة لا يملك معها الإفلات .

وشهد الفتى يخفى دفترًا صغيراً في جيبه ، مترصداً
 لكل فرصة تسنح ، فلا يلبث أن يخرج الدفتر ليقرأ ويكرر
 القراءة ، ثم لا يفتأ يتلو على نفسه ما قرأ .

وجاءه «عبد الواحد» ضحوة يوم ، فاجتذبه «حسن»
 من يده ، وأوغل به في مخزن الخانوت الأغيش ، قائلاً

له في لهجة المزهر :

لقد أتممت الرواية حفظاً . . .

— آية رواية ؟

— رواية « الممثل » التي أعزنتي إياها .

— إنك لم تخبرني بعزمك علي ذلك .

وأخرج الفتى رواية « الممثل » من جيبه ، ودفعها إلى صديقه وهو يفتح صفحاتها كما اتفق ، ويقول :
استمع لي .

وانبرى يتلو بعض قطع من الرواية في إلقاء تمثيلي ،
و « عبد الواحد » تجاهه ، فاغر فيه ، يعروه الدهش ،
وما هي إلا أن نهض يعانق صاحبه قائلاً له :

أحسنت كل الإحسان يا « حسن » . . . كيف تيسر
لك أن تجيد التمثيل هذه الإجابة ؟

فاشرب الفتى يجيب :

التمثيل هبة يمن بها الله على من يشاء من عباده .
وسادهما الصمت هنية ، ثم قال « عبد الواحد » :
سيعاد تمثيل هذه الرواية عما قريب . . . فما رأيك

في الاشتراك في تمثيلها مع الفرقة ؟ .

فبرقت عين « حسن » وهو يقول :

أفعل . . . ولكن . . .

— ولكن عمك . . . أليس كذلك ؟

فاحتدّ الفتي في قوله :

سأذهب . . . رضى عمى أو كره . . .

وتابع الفتي جهده في استذكار الرواية ، يحتبس في مخزن الخانوت الأغبش ، ليمثل بعض المشاهد ، تارة وحده ، وتارة مع قرينه « عبد الواحد » . . . وكان قرينه هذا قد اتفق مع الفرقة على أن تضم « حسناً » إلى البطانة « الكومبارس » ، فيظهر ليلة التمثيل على منصة المسرح . وتبدلت حال الفتي « حسن » فأهمل كل الإهمال ما بين يديه من عمل ، ولم يعد يهتم بأداء الصلاة ، وكثيراً ما غاب عن الخانوت غير مكترث به . . . وتمرد على عمه ، لا يعبأ بنذيره وتحذيره ، فهو ينسل من الخانوت مع صاحبه ليحضر تجارب الرواية في دار التمثيل .

وفي ساعة من نهار قدم « عبد الواحد » على الفتي

في حانوته ، يُسْرُ إليه القول ، وكان عمه على مقربة ،
وما إن لمحهما يتساران ، حتى ركبه شيطانه ، فدفع
« بعبء الراحه » يقصيه عن الحانوت ، وانثنى على ابن
أخيه يضربه بعصاه ، في غير رحمة ولا إشفاق !

٣

وذات مساء ، أغلق الشيخ « مبارك » - عم الفتى -
حانوته ، واتخذ سبيله إلى البيت ، وفي صحبته « حسن » . . .
وبعد أن تناولت الأسرة عشاءها ، أوى الرجل إلى
حجرته الخاصة ، ولحقت به زوجته « أم خليل » تحمل
له قدح القهوة ، وكان « حسن » يعلم علم اليقين أن عمه
متى دخل حجرته ، وشرب قهوته ، وبدأ صلواته ، فسيمضي
بقية ليله ، لا يغادر مخدعه حتى يحين صباح .
لا غرؤ إذن أن يخلع « حسن » حذاءه ، وأن
يمشي رويداً على أطراف أصابعه ، ينسرق من البيت
انسراق اللص ، وقلبه مطمئن إلى أن عمه لن يكشف

سر خروجه في الليل .

وكيف لا يترك « حسن » البيت في هذه العشيّة ،
وهي موعد التمثيل ، و « عبد الواحد » على باب المسرح
ينتظر مقدمه .

وأسرع « حسن » إلى المسرح ، يلججه من الباب
الخلقي الخاص بالممثلين ، فحشروه في البطانة ، وعُني
القيّم على أمرهم باللباس كل منهم ما يجانس موقفه من
زى ، وبتلوين وجهه وتشكيل هيئته ، على النحو الملائم
له ؛ فبدأ « حسن » في لبوسه التمثيلي ، يميل على صاحبه
قائلاً له :

أتعلم يا « عبد الواحد » أن أروع ساعة في حياة
الممثل هي الساعة التي يقف فيها أمام المرأة خاضعاً لعملية
التلوين والتشكيل ؟ ..

ودقّ المسرح دقائق البدء ، قلبت الفتى مشغولاً
بالتعليقات يتلقاها من القيّم على مواقف البطانة ، معداً
نفسه للظهور أمام جمهرة النظارة . وبين الفينة والفينة ينفلت
إلى إحدى الحجر ليواجه المرأة ، فيصلح من هندامه ،

ويضع يده على مقبض سيفه ، ويخطو بضع خطوات
في رزانة واتزان .

وبعد أن فرغ الفتى من أداء مهمته على المسرح ،
خرج إلى الطريق ذاهلاً يقطب جبينه ، و « عبد الواحد »
بجانبه يكلمه فلا يجيبه ، فلما عيل صبره سأله :
مالك لا تتكلم ؟ أتشكو شيئاً ؟ .

فأجابه الفتى مقتضباً في غير التفات إليه :
ليس بي من شيء . . . ولكنني أفكر . . . أفكر في
أمور جسام !

٤

شغف الفتى بفن التمثيل أيما شغف ، ملك عليه الفن
يقظته ونومه ، فهو أينما حل ؛ في ثورة من هواجسه وتصوراته ،
وهو في عالم الأحلام يرى أنه يمثل موقف البطل الأول ،
في رواية « الممثل » ، والنظارة في أرجاء القاعة دامية أكفهم
من التصفيق .

واستبد به حبّ الفن . . . فإذا احتواه الحانوت يبيع
 الجبن والزيتون ، أحسّ في ذلك امتهاناً لكرامته ، ومضيعةً
 لوقته ، وامتأّت نفسه بالتأفف والازدراء ، فجعل يهرب
 في النهار من الحانوت كلما وافته فرصة الهرب ، ليلقى
 صديقه « عبد الواحد » فيصحبه إلى دار المسرح لمشاهدة
 التجارب ، وطفق يرصد غفلات الأسرة في الليل ليحضر
 حفلات التمثيل .

وكان الشيخ « مبارك » يبذل جهده في تقويم ما اعوج
 من أمر ابن أخيه ، يخاشنه مرةً ويحاسنه أخرى ، ولكن
 الفتى ظل على حاله لا يردعه ضرب ، ولا ينجع فيه نصيح .
 بل لقد أصبح يجد في نفسه اشمزازاً من عمه ، وإصغاراً
 لشأنه ، فهو في حسابه جامد الفكر ، مأفون الرأي ،
 جهول ، غير مقدر للفن قدره الجليل .

وزاد الهوس بالفتى ، فعمد إلى الموسيقى يُمرها على
 منابت شاربه لكي يخضر ، وعنى بشعر رأسه حتى يغزر
 وينمو ، وفرغ إلى كسار مرآته ينظر ويفحص ؛ ليشد جلدة
 وجهه ، ولا يزال يغضنها لكي تتكمش ، وهل أدل على

عبقرية الممثل من رأس مهوَّش الشعر ، ووجه تكاثرت
عليه التجاعيد ! ؟

وكان إذا آنس وقتاً من النهار لا يبيع فيه ، دلف إلى
المخزن الأغبش في أقصى الخانات ، فضحك وعبس ،
وأوماً وأشار ، واشرباً وتقاصر ، وتكلم وغمغم ، حتى
ينهكه التمثيل ، أو يصيح به زبون يطلب الجبن والزيتون ،
فيرز من المخزن محتقن الوجه ، ندى الجبين . . . !
وسقطت للفتى بعد لأيٍ حلة من حلل التمثيل مهلهلة ،
فكان إذا خلا إلى حجرته ارتداها ليمثل بها بعض المواقف
الخببية إليه في تحمس واهتياج .

وحرص الفتى على أن يتم التعارف بينه وبين الأدباء
والممثلين ، وأدركوا منه ما يحمل بين جنبيه من ولع بالتمثيل
وما إليه ، فلا تكاد تراه جماعة منهم حتى ترغب إليه في
أن يلتقى شيئاً مما يجيد ، فيبدي بعض التمتع والتعذر
أول الأمر ، ثم يندفع في الإلقاء بغتة ، تنتظمه رعشة ،
وما إن يفرغ من تمثيله حتى يرتجّ المجلس بالتضحك
والهلال والتصفيق . . . !

ومرةً كان يضمه أحد الأندية ، في شارع
 « عماد الدين » ، ومن حوله جمع الصحاب يستمعون إليه ،
 وقد وقف يعرض تمثيلياته المختارة ، وحنجرته تكاد تنشق
 من الصياح ، فهافت السابلة عليه يتفرجون ، وأقبل
 منهم رجل مهذار على الفتي يصفحه في حمية وهو يقول :
 لقد أبدعت يا أستاذ إبداعاً يعيا لساني بوصفه ،
 فأهنتك من أعماق قلبي !

ثم التفت إلى الجمع المزدهم ، مهيباً بهم أن يحسوا
 الفنان العظيم ، هاتفاً :
 فليحي نابغة التمثيل .

فردد القوم نداءه متغامزين ، ودنا الرجل المهذار
 من الفتي يحمله على كتفه ، ويطوف به ، والناس من
 خلفه يتبعونه في ضجة ومراح .

وعاد الرجل المهذار بالفتي يجلسه على كرسيه ، ويساجله
 الحديث في شئون الفن ، ومن حوضهما حلقة المحتفلين
 ينظرون ويسمعون ، فتطلع الفتي إليهم وضاءً الجبين ،
 يهزه طرب ، وانطلق يتحدث عن التمثيل حديثه المستفيض ،

فقال له الرجل المهذار :

لماذا لا تحترف التمثيل ، فيكون لك فيه عمل بارز

يا أستاذ؟

— عمل بارز؟

— إنَّ لك مواهبَ ممتازة ، فلماذا تحبسها يا أستاذ؟

فصمت « حسن » هنيهة ، ثم أجاب :

هذا شغلي الشاغل الآن يا سيدى ، فلا تحسبنَّ

سكوتى تقصيراً فى واجبى . . . سترى فى القريب ما أنا

فاعله !

— لا بد أن لك خطةً تزعم إنفاذها يا أستاذ . . .

— خطة وأى خطة !

فقال رجل من الحلقة :

أيأبى الأستاذ أن يصرح لنا بما ينوى أن يفعل؟

فابتسم الفتى ، ثم مطّ شفتيه يقول :

أعفى من التصريح الآن يا سيدى . . .

وانفض الجمع ، فخرج الفتى يعتسف الطريق لا يعرف

له وجهة ، تمور فى رأسه الأفكار ، وتجيئ فى نفسه

they put ideas in his head

الأحاسيس . وإذا هو يصادف صديقه « عبد الواحد » ،
 فهتف به ، وبسط له ذراعيه وقال :
 احتضنى يا صديقى وقبلنى . . .
 فلم يتوان « عبد الواحد » فى الاستجابة لصاحبه ،
 وتابع « حسن » قوله :

ليتك كنت معى منذ قليل . . . لقد كانت ساعة
 انتصار ليس بعده انتصار !

— أى انتصار يا عزيزى ؟

فأمسك الفتى عن الجواب لحظةً ، ثم مال على صديقه
 يقول له :

اسمع يا « عبد الواحد » . . . لم نعد صغاراً . لماذا
 لا تدعونى بلقب أستاذ ، بدلاً من قولك « يا عزيزى » ؟ . . .
 فأجابه « عبد الواحد » وهو فى حيرة من أمره :
 ولم لا يا أستاذ ؟

فتطلق وجه « حسن » ، وشرع يقص على صاحبه
 حديث النجاح الذى واثاه اليوم ، فلم يسمع صاحبه إلا
 أن يشد على يده قائلاً :

أهنتك يا أستاذ . . . وددت لو شهدت هذا النجاح

بعينى !

فرفع الفتى رأسه إلى صديقه يقول له فى جده واهتمام :

اسمع يا عبد الواحد . . . لقد انتويت أن أقوم

بعمل جسيم فى عالم التمثيل . . . أفأجندك عوناً لى ؟

— وهل حسبتنى أحجم عن عزرك ؟

— بورك فيك . . .

— أى عمل تعنى ؟

— هذا سر أحتفظ به الآن . . .

وسكت لحظة ، ثم استأنف يقول :

إنى مضطر أن أودعك ، لأعجل إلى بعض عملى .

موعدنا غداً فى « قهوة الفن » . . .

extended ٥

لم يصح « حسن » من زومه حتى تمتع النهار ، فلما

ذهب إلى الحانوت ، وجد فيه غلاماً يدعى « يوسف »

اجتلبه عمه ليزاول شئون المتجر ، فوقع في وهم « حسن »
 أن عمه إنما استعان بذلك الغلام ليخفف عن ابن أخيه ،
 فَسُرَّ بذلك أَيْسَمَا سرور ، واعتقد أن الأقدار توازره ،
 وتُسْمَهُد له تحقيق رغبته . وعول على أن يفتح عمه ، فيما
 يشغل باله من الأمر العظيم .

وصحب الفتى عمه إلى البيت ، ليصيبا غداءهما ،
 كلاهما يخطو صامتاً ، كأنهما رفيقا طريق ليس بينهما
 تعارف ، وكلاهما يريد أن يُفَضِّي بذات نفسه فلا يفعل .
 وجمعت المائدة بين الفتى وعمه ، وزوجته « أم خليل »
 فجعلوا يأكلون وهم سكوت ، على وجوههم قطوب . وأطبق
 على المجلس سكوت لا يחדشه إلا نباح ، يبعثه كلب
 الجيران من بعيد ، كأنه نواح الثكلى .

وتشعثت نظرات الفتى فيمن حوله وفيما حوله . . .
 هذا عمه يبلو وقد استبان فيه الشيخوخة ترعش يَدَاهُ ،
 وتخط في وجهه الأخاديد . وتلك امرأة عمه تضع على
 رأسها خمارها الأسود ، وتتباطأ في ازدراد الطعام ، وتتمهد
 في الحين بعد الحين . . . وذلك هو أثاث البيت ، يحيط

بالفتى ليثير فيه ذكريات ماضيه ، ويجمع عليه أحداث حياته .

ونكس « حسن » رأسه تثقله الهواجس ، وندت منه تنهدة جياشة ، جاوبتها تنهدة عمه ، وامرأة عمه معاً ، وهما ينظران إليه . والتفت الشيخ « مبارك » إلى زوجه يقول :
 أليس من الرزية أن أستعين في الحانوت بغلام غريب ،
 ولى ابن أخ رجوت عونه ، وعولت عليه ؟
 فأخيد الفتى بما يسمع . ولم يزد على أن تنحسح ،
 وأجابت الزوجة رجلها تقول :

وما حيلتك يا شيخ « مبارك » ؟ وتلك هي القسمة
 والنصيب !

— حقاً . . . ولكن ما أسوأها من قسمة ونصيب .

وأطرق لحظة ، ثم استأنف قوله لابن أخيه :
 لقد أديت واجبي نحرك يا بنى . . . ولا ذنب لى فيما
 أنت صائر إليه . . . لقد عنيت بإدخالك المدرسة ،
 وبذلت جهدى فى أن أجد منك رجلاً متعلماً ، ينفع
 نفسه ، ويكرن لنا ذخيرةً فى مستقبل الأيام . ولكنك

أخفقت ، فألقيت إليك مقاليد الخانوت لتحسن التجارة
وتخلفني في العمل ، فإذا أنت تسيء السيرة ، وإذا أنت
لا تجدى في إصلاح حالك وسائلُ العنف أو الرفق ،
وأبيتَ إلاّ أن تنساقَ في تيّار اللهو والفساد . وكان حقاً
عليك - جزاء ما أسديتُ إليك - أن تحمل عني العبءَ ،
وتوفّر لي الراحة ، إذْ تقدمت بي السن ، وأشرفتُ على
نهايةِ العمر .

فدعمت « أم خليل » رأسها بيديها ، وتبادرت الدموع
إلى عينيها ، وحمجمت تقول :

هذا حظنا من الدنيا . . .

وأحس الفتى شفّيته ترتعشان ، وهو يقول :

أنا يا عمي معذور . . . والله إني معذور . . .

فأجابه العم ، مرير ال لهجة :

حقاً يا بني . . . لك عذرك . . . وهل ينكر ذلك

أحد ! ؟

- إنك يا عمي لا تعرف قدرى . . . إنك لا تفهمنى !

- كيف لا أقدرك ، ولا أفهمك ؟ . . . أنا مقدر

وفاهم كل الفهم . . .

— ولماذا إذن تنكر على ما أعمل ؟ !

— أنت في ضلال . . . أنت مجنون ! .

— يا عمي أنا فنان . . . أنا « أرتست » !

ففغر الرجل فاه يقول :

أى شيء هو « الأرتست » يا بني ؟

فاتخذ الفتى لنفسه سمت المعلم ، يشرح لطلابيه

ما غمض من المسائل ، وأجاب بقوله :

« الأرتست » يا عمي هو « الممثل » . . . هو من

أوتى مرهبة الفن ، وعبقريته التشخيص . . .

فلم يكذب يتم جملته ، حتى عاجله الشيخ « مبارك »

ببصقته توسطت وجهه ، وقال له محتدًا النبرات :

لعنة الله عليك وعلى فنك !

وجنح إلى زوجته يقول :

انظري واعجبي . . . ذلك ما كان ينتظرنا ! . . .

هذا « حسن » يتباهى أمامنا بأنه أحسن التمثيل ، وأصبح

في زمرة المشخصين !

ورددت الزوجة قولها في تساؤل :

المشخصين ؟ . . . المشخصين ؟

فأجابها الزوج يقول :

أجل . . . هؤلاء الرقعاء الخلعاء الفاسدون . . .

فغضب « حسن » للفن ، وقال يحتاج :

ماذا تقول يا عمي ؟ هذه إهانة !

— وما الممثل إذن يا « حسن » ؟ أليس هو ذلك

الذى يكحل عينيه ، ويصبغ بالأحمر والأبيض وجهه ، ويبدو

في سراويل ضيقة ، يتعوج ويتراقص ؟ !

وضربت الزوجة صدرها بيدها تقول :

يا للعار يا « حسن » . . . يا لها من خيبة لم تكن لنا على

بال ! . . . أترضى لنفسك أن تكون كذلك ؟ .

وغصّ الفتى بريقه ، وأرتج عليه ، فاندفع منه يقول

لزوجه :

أتحسبين يا « أم خليل » أنه ما زال لي ابن أخ اسمه

« حسن عبد الكريم » ؟ . . . لا والله ! . . . عوضني الله

عنه . . . عوضني الله عنك يا « حسن » . . . أردت

أن تفضحننا في آخر الزمن . . . اذهب فافعل ما تريد ،
لا سدّد الله خطاك ! .

ونفض يبصق ، كأنما يتقرّز ، واتجه إلى المطهرة
يغسل يديه . . .

وأقبلت « أم خليل » على الفتى تعاتبه قائلة له :
أكذلك تُسخط عليك عمك ؟ قم إليه فقبّل رأسه ،
واستغفره وقل له : إنك تبتّ ورجعت ، ودع عنك هذا
الهدر الذي لا ينفعك .

فألقي عليها الفتى نظرةً شزراء ، وقال :
إنك أنت وعمي لم تفهماني ، ولن تفهماني ، فاتركاني
وشأني ، وسوف تدركان خطأكما ، وتعرفان حقيقة أمرى ،
حين يتسامع الناس بي عما قريب . . .

صدرَ الفتى عن المائدة يلوذ بحجرته . . . وما عثم
أن شمّر عن ساعديه ، وحمق بعينيه ، وأنشأ يجمع ما تفرق

من ثيابه وأشياؤه ، وضم بعضها إلى بعض في صرة ، ثم
تفقد عصاه المسرحية الطويلة ، التي كان يدعوها عصا
«أوديب» ، حتى إذا وجدها علقها صرة المتاع ،
وحملها على كتفه في عزة وإصرار .

ولبث في موقفه لحظة يتسمع ، وإذا وثق بأن عمه
وزوجته قد أفضيا إلى حجرتهما يتقيان ، فتح الباب في
محاذرة ومساترة ، ومشكل يلقى على حجرته آخر نظرة ،
وهو يهمهم بقوله :

وداعاً يا حجرتي الحبيبة ... وداعاً يا مهبط وحبي ومستودع
أسراري ... وداعاً يا منبع عبقرتي ومرتع أحلامي ... وداعاً
أيها المنزل الذي تألأت فيه أنوار طفولتي !

واشد وجيب قلبه ، واخشوشن صوته ، وهو يتابع مناجاته :
وأنت يا عماه ... يا من وقفت حجر عثرة في طريق آمالي ،
لك مني صفح الكرام ، فم في سلام ... وأنت يا زوج عمي ،
يا من كنت طيبة القلب ، على الرغم من جهالتك وغباوتك ،
سأذكر لك معروفك ، مهما يكن من إساءتك ... وداعاً
لكما ... وداعاً لكل شيء هنا ، وداعاً يا له من وداع !

وأخذته نوبة الإنشاد ، فاستطرد يقول :
 وداعاً للطبل الذى يشب حرارة النفس ، بما له من
 دوى عظيم . . . وداعاً للمزمار الذى يشجو القلب ، بما له
 من صفير رخيم . . . وداعاً يا له من وداع !
 ومشى فى الردهة مشية « عطيل » وانطلق إلى الطريق
 لا يلوى على شيء ، فى حين كان عمه يتقلب مذعوراً
 وهو يوقظ زوجته ليسألها :

ألم تسمعى أحداً يصيح فى البيت ؟
 فنفضت المرأة عن عينها غبار النوم ، وقالت له :
 ربما كنت حاملاً يا « أبا خليل » !

٧

لم يدع « حسن » مسرحاً إلا طرقة ، يعرض نفسه
 عليه ، وانتهى به المطاف إلى فرقة هزلية فى أطراف المدينة
 كانت تأجره على عمله فيها بالمياومة ، وكان أجره ضئيلاً
 لا يكاد يكفيه ، ولكنه صبر عليه ، ورضى به ، وبعد

أسبوعين استدعاه مدير الفرقة ليقول له :

طالما أفهمناك أن المواقف التي تسند إليك مواقف
مزح ومهازلة ، ولكنك تأتي إلا أن تؤديها جدية الطابع ،
تحمل مسحة المأساة . . .

— إنى أستوحى روح الفن ، وأؤدى عملي كما يجب أن
يؤدى . . .

فأنشأ مدير الفرقة يحاوره ليصرفه عن عناده ، ولكن
الفتى أصر على رأيه ، فلم يملك الرجل إلا أن يقول :
إن روح فنك لا تلائم جو الفرقة يا أستاذ . . .
فعدرة !

— هذا صحيح !

— اتفقنا . . .

— لى اقتراح أعرضه عليك . . .

— إنى أرحب بكل ما تعرض . . .

— شكراً يا سيدى . . . منذ التحاقى بفرقتك وأنا

مشغول بإعداد خطة لترقية فن التمثيل .

— هل فرغت من إعدادها ؟

— على وشك أن أفرغ . . .

— وهل لي أن أعرف خطتك ؟

— أن تأذن لي باتخاذ مسرحك واستخدام فرقك،

لتمثيل رواية جديدة من المسرحيات الفنية الرفيعة ، مرة
كل أسبوع ، على أن يكون الربح بيننا مناصفة .

فابتسم مدير الفرقة ابتسامة عريضة ، وحلق إلى الفتى

يقول له :

هذه خطة عظيمة يا أستاذ ! ولكنها تحتاج إلى بحث .

— لديك من الوقت فسحة ، ولكن لا تنس المثل

الطيب : خير البر عاجله .

وصمت المدير يتلاعب بقلمه ، ثم رفع رأسه قائلاً :

أين كنت يا « أبا علي » قبل أن تلتحق بفرقتي ؟

كنت أعمل في حانوت عمي . . .

— أي حانوت ؟ !

— حانوت بدّال . . .

— ولماذا عدلت عن التجارة إلى التمثيل ؟

— لأنني أحببته ، وأريد أن أعمل على ترقيته . . .

- أتحب أن أنصح لك يا بني ؟
 — وبماذا تنصح لي ؟
 — أن تعود إلى حانوت عمك ، فتريح نفسك من هذا
 العناء .

- لقد وهبت الفنّ نفسي ، ولن أحول عنه .
 — أمصرّ أنت ؟
 — كل الإصرار . . .
 — أريد أن أسألك ، فلا تضقّ بي . . .
 — سل ما بدا لك . . .
 — ألم يخطر لك مرة أنك على شيء من الهوس ؟
 — وهبت الفتي ، وانفجرت شفتاه يجمجم :
 — هوس ؟ . . . أى هوس ؟ !
 — خير لك يا بني أن تعود إلى عمك الذى كنت فيه ،
 فحرام أن تسيء إلى نفسك .
 — لم يبق عندى شك فى أن الحاسدين قد دسوا لي
 عندك ، صارحني بالحقيقة .
 — أى دسيسة يا بني ؟ وأى حاسدين ؟ ما دمت

لا تقبل النصح فلا شأن لى بك ! . . . إن كانت لك بقية
من أجر فاذهب إلى الكاتب لتطلبها منه . خذها وتوكل .
هذا آخر أيامك فى الفرقة . . . وكفى !

— أنت بلا ريب تخشى منافستى إياك ! يا للضعف !
ولكنى أقسم لك إنى ما أردت بك الضر ، بل نويت لك
الخير .

فنهض الرجل يدفع بالفتى إلى الباب ، وهو يصيح
بالكاتب أن يؤدى له حسابه ، ويريه ظهر الطريق !

عمل « حسن » فى شتى دور التمثيل ، على تفاوت
الدرجات ، تتقاذف به الفرق والأجواق ، ولكنه لم يستقر
به المقام فى فرقة ولا جوق . فهو لا يسلم حتى يودع ،
إذ كان دائم التشكى ، موصل السخط ، غير قانع
بما يسند إليه من مواقف ، يبغى أن توكل إليه مقامات
البطولة فى المسرحيات ، مؤكداً كفايته للاضطلاع بها

على خير ما يرام . وهو إلى ذلك يجاوز طوره في معاملة
 الزمسة من الممثلين ، يتطوع لهم بالملاحظة ، ويتطفل
 عليهم بالنقد ، وينعى عليهم ألوان القصور والتقصير .
 فأما الروايات فإنها تظفر من تجريحه وتشهيره بالنصيب
 الأوفر ، وتراه يجترئ على أن يدخل عليها صنوف التبديل
 والتعديل ، وإن كره المؤلفون . وأما إدارة المسرح فهي
 مشغلة لسانه ومضغعة فمه ، يتهمها بسوء التصرف ، ويرميها
 بالعجز والجهل والحمول ، فلا غرو أن توصل أبواب
 المسارح دونه ، وأن يفقد فيها من ينصره على أمره .

وبعد لأي ضمته إليها جوقة جواله في الأقاليم ، ولم
 يجد الفتى بدءاً من أن يرضى بالعمل معها إلى حين ، وأن
 يذعن لما يُسند إليه من مواقف لا تلائم كفايته ، ولا تُروى
 غلته .

وانكسرت نفسه ، فأثر الانطواء ، ولازم الصمت ،
 وحالف العبوس ، لا يخالط زملمته ، ولا يألف أحداً من
 الناس .

وبينما هو ذات يوم ، وقد خلا إلى نفسه يتصفح

خططه وبرامجه التي يبنها قصوراً في الهواء ، إذ أقبل عليه
أحد رصفائه من ممثلي الجوقة ، يمازحه بقوله :

ما بالك يا أستاذ . . . تخلد إلى الوحدة والصمت ؟

لا بد أن يكون الحب قد تمكن من قلبك !

فشمخ « حسن » برأسه يقول :

الحب ؟ إني لا أعرفه !

— كيف ذلك يا أستاذ وأنت فنان ؟

— المرأة التي تستأهل حبي لم تخلق بعد ! . . .

لم يطل عهد الفتى بحياة الرزاة والسكون في عمله ،
فانتابته نزعات الإزراء والتعيب ، تثيره حرباً على أوضاع
الجوقة في التمثيل والإخراج ، وتوزيع المواقف على الأبطال ،
فنشبت بينه وبين رئيس الجوقة مساجلة عنيفة أفضت
بهما إلى مفاصلة وفراق .

ورجع الفتى أدراجه إلى « القاهرة » وقد أقسم بالآيمان
المغلظة أن يقاطع الفرق والجوقات التمثيلية ما عاش ، حتى
يهي له الله من أمره سعة ، فينفذ خططه في خدمة الفن ،
وينفرد فيها بأمره ، لا معقب له من دونه .

وبرت يمين الفتى ، فكان يتنكب عن دور المسارح ،
لا تطؤها قدماه ، ويتجنب مجالس الممثلين ، لا يأنس
منهم بأحد .

وربما ساقته المصادفات ، فمر بجمع منهم يتحدثون ،
فلا يلبث أن يظن بهم الظنون ، ويقع في روعه أنهم
يخوضون في حديثه ، فإذا هو يرميهم بشواظ من عينين
ملؤهما الكبرياء . . . ولو اتفق لأحد منهم أن يضحك
ساعة مروره به ، لحسب أنه يسخر منه ، فيجيبه ببصقة
تقرع الأرض ، ويمضى متعالى الهامة ، على وجهه سياء
الاشمزاز .

بيد أنه على الرغم من هذا كله ، أبقى على مودته
لصديقه « عبد الواحد » يجلس في « قهوة الفن » معه أكبر
وقته ، ويبثه ذات نفسه في بعض أحيانه ، فإن لم يجده
في القهوة انفرد بمجاسه ، وأرسل في عرض الشارع نظره
الشَّرد .

وطال التمثل بالفتى ، واشتدت به العسرة ، فتمشفت
في عيشه كل التمشفت ، ولم يقبل ما عرضه عليه صديقه

« عبد الواحد » من معونة ، حتى عضته الحاجة ، فانقطع
 عن « قهوة الفن » وأمضى وقته بين الشوارع والميادين ،
 في تجوال مسنوم ، ينهكه السعى ، فيتوخي معزلاً على حاشية
 الطريق ، ويجلس مفكراً فيما آلت إليه حاله من شِيقوة
 وتَعَس ، فيزفر الزفرة الحرّى من أعماق صدره وهو يقول :
 صبر جميل . . . إنما طبعت الدنيا على معاندة الأحرار ،
 وإنما خلق الفنان الكمي يكابد الحياة . . !

وطالت غيبته عن « قهوة الفن » . . . فضى صديقه
 « عبد الواحد » يقتصّ أثره ، حتى اهتدى إليه صبح
 يوم قابلاً في حجرته ، قد اتخذ منها محبساً عن طواعية ،
 وآلى ألا يبرحها في ليل أو نهار ، وهو في حالة من البؤس
 يلين لها جامد القلب . فقال له :

استمع لى أيها الصديق . . . لا بد أن تخلص من
 هذا المأزق الذى أنت فيه .

— وكيف ؟

— لقد رفقت إلى سبيل الخلاص ، وسعيت لك فتكلل
 مسعاهى بالنجاح .

— أى سبيل تعنى ؟

— قصدت إلى عمك الشيخ « مبارك » وترضيتُه لك ،

فقبل منى ، وهو يرحب بعودتك إليه . . .

فانتفش « حسن » وقد هاج غضبه ، يقول :

أنت فعلت هذا يا « عبد الواحد » ؟ إنك حتى اليوم

لا تعرفنى حق المعرفة !

— أتأنف أن تعود إلى عمك ؟

— كل الأنفة !

— أتريد أن تقضى على نفسك فى هذا الحبس ؟

— الموت فى سبيل المبدأ والعقيدة حياة . . . والفناء

من أجل الفن هو عين البقاء !

وجعل الفتى يوسع خطاه فى الحجرة ذهاباً وجيئةً

عاقداً خلف ظهره يديه ، واستأنف « عبد الواحد » قوله :

ما ضرك أن تعود إلى عمك بعض الوقت ، حتى تستبين

طريقك ، وتتخذ أهبتك ، لتحقيق ما تصبو إليه نفسك ؟

— أتسومنى أن أعتذر إلى عمى ؟ هيات !

— لا يرغب إليك عمك فى اعتذار . . . فهو يرحب

بمقدمك ، دون قيد أو شرط . . .

وصمت الصديق لحظات ، ثم أنشأ يخافت بقوله :

عمك رهين مرض عضال ، وقد بلغ منه الهزال كل مبلغ ، وبدا عليه الشحوب أسوأ ما يبدو . . . وإني من حاله على قلق !

فأنصت « حسن » لما يقوله صديقه كل الإنصات ،

ولاح عليه الاهتمام بما سمع ، وتخلَّجت خطاه في سيره . . . فواصل « عبد الواحد » قوله :

ما أحوجه إليك في مرضه ، وأنت ربيبه . . . وما أجدرك بثقتي ، وأنت ابن أخيه . . . أجبني ، علام عوّلت ؟
— دعني أفكر . . .

— الأمر واضح لا يستوجب التفكير ، ولكن يستوجب

الاعتزام والتصميم . . . امض معي إلى عمك . . .

— أما الآن فلا ، ولكنني سأمر بك في « قهوة الفن »

عصر اليوم ، وسأخبرك بما ينتهي إليه الرأي .

— سأنتظرك فلا تبطئ على .

وفيا كان « عبد الواحد » موشكاً أن يغادر الحجة ،

التفت إلى «حسن» يهمس في أذنه :

لو حانت منية الشيخ «مبارك» ، لا قدر الله ،
وهو عليك غضبان ، لم يصبك من ميراثه كثير ولا قليل . . .
فإنه مزعج أن ينزل لزوجته عن كل ما يملك . . . وأما
إن رضى عنك ، فسيصبح للأمر وجه آخر !

فاهتر «حسن» على غير إرادة منه ، وغشيه الصمت
هنيئة ، ثم انتبه صائحاً مغيضاً يقول :

أتظنني أطمع في شيء؟ هذه إهانة . . . هذه إهانة !
— معاذ الله أن أظن بك هذا الظن . . . إنما أردت
أن أجلو لك الحقيقة ، لتكون من أمرك على بصيرة . . .
أستودعك الله . . . إلى الملتقى في «قهوة الفن» . . .
وانفتل «عبد الواحد» يلوّح بيده .

وظفق «حسن» يدور في الحجرة بخطواته المتخلجة ،
ورأسه ينوء بأفكار ثقالة !

لانت قناة الفتى « حسن » . . . فنزل عند رأى صديقه
« عبد الواحد » ومضيا معا يلقيان الشيخ « مباركاً » . ولمح
العم ابن أخيه مقبلاً عليه فهش له وبش ، وسرعان ما جعللا
يتعانقان ويتباكيان ، وانكب الفتى على يد عمه يقبلها
ويندبها بالدمع مجتهداً في إظهار الندم وطلب المغفرة ،
متأنقاً في تعبيره عما يكن لعمه من تجارة وعرفان للجميل .
وعلى توالى الأيام بدا الفتى في صبغة جديدة ، فهو
يضطلع بعمله في الحانوت ناشطاً جدّ مهتم ، وهو يؤدي
الصلوات في مواقيتها حاضرةً يحدهه تطامن وخشوع ،
وهو يسكن إلى فراشه في الهزيع الأول من الليل ، لا يتشوف
إلى السوامر والمساهر . . . هذا إلى أنه أكسب وجهه سياء
الرجولة والاستقامة ، وتجلت وقور السمات ، ناضب الابتسام ،
نزر الكلام . إذا أخذ في حديث لم يتخلل قوله دعابة ،
مصطنعاً حكمة الشيوخ ، وحنكة المجرّبين .

وكان عمه يرى ذلك كله منه ، فيدهش له أيما دهش ، ويقول محبور النفس : الهداية من الله !
 وثقلت وطأة العلة على الرجل ، فأوثقته إلى فراشه لا يريمه ، ولم تبق عنده نهمة لمزاولة عمله ، أو الإشراف عليه . وظل يقضي أكبر يومه في سبات لا يكاد يفيق منه ، فقلقت عليه زوجته « أم خليل » ، ولم تترك وسيلة إلا اتخذتها في تطيبه وعلاجه ، تدعو له الطبيب بعد الطبيب ، وتستوصف له العجائز فيما يعرفه من أخلاط الأعشاب ، وتستخبر له الشيوخ فيما يستشرفونه من أسرار الغيب ، وتجلبهم إلى البيت يكتبون له ضرورياً من التأمم والتعاويد ، ويتلون على رأسه مختلف الرقي والتساييح . وتقصد إلى ضرائح الأولياء تستشفع لرجلها وتتوسل ، باذلة سخي الصدقات ، ناذرة في سبيل شفائه ألوان النذور .

ولكن الشيخ « مباركاً » كان على الرغم من ذلك كله تتناقص حيويته وقتاً بعد وقت ، كما يتناقص الضوء من ذبالة القنديل إذا نضب فيه الزيت . فيشتد بزوجه القلق ، وتمعن في رعاية وتعهد ، على حين يقف الفتى من

هذه المرأتى موقف الصامت المهموم ، بأسره تفكير غلاب .
 واستيقظ الحيران بكرة يوم ، وقد أفرغتهم صرخات
 لاهفة تنبعث من بيت الشيخ « مبارك » فدنطنوا لما حدث ،
 وتأهبوا للقدوم يستجلون الخبر ، وما هى إلا أن برز
 « حسن » من حجرته فى ذهول ، فاستقبلته زوج عمه معولة
 تندب ، وأمسكت به تروى له فاجعة الصباح ، فألقى
 الفتى نفسه ينتحب ، وما تمالك أن اندفع يلطم وجهه ،
 ولما هادنته نوبة النحيب استبان له زوج عمه ملقاةً على
 الأرض قد أدركها إغماء ، فأسرع إلى الماء ينضح به
 وجهها حتى أفاقت مخنوقة الصوت ، مهزومة الأوصال .
 وتقاطر النساء والرجال على البيت يؤدون واجب المواساة ،
 ويعرضون صنوف العون فى مثل هذه الحال ، واستجدى
 الفتى عينيه فضلة من دمع يذرفها فى استقبال المعزين ،
 فاستعصت عليه عيناه . . . فعجل فى غفلة من الناس
 إلى حجرته ، ومثل أمام المرأة فى حنق ، وما عتم أن ثار
 على نفسه ، فألقى على وجهه يحمشه ، وعلى شعره ينفضه ،
 وعلى عينيه يكاد يدميها بكلتا يديه ، ولمح عن كسب

Never forget about
acting & make-up.

٤٦

حُقّ الدهان ، فجعل يداك به خديه وجفنيه ، ثم وقف
يتأمل خياله في المرآة ، وتهايا للخروج من حجرته ، وقد
توضّحت فيه سحنة « أوديب » في خاتمة مسرحيته ، بعد
أن تخزقت عيناه ، وشاه محيّاها ! ...
وفتح الفتى باب الحجره ، وهو يزعق ما وسعه أن
يزعق :

واحسرتاه عليك يا عماء !

فأسرع إليه بعض من حضر يسكنون من روعه ،
ويقولون له :

تجلد يا « حسن » . . . كن رجلاً واصبر ، فإنّ
الصبر شيمه الرجال . . .
وكأنما ألهب هذا القول من حماسه ، فتابع صياحه
يقول :

دعوني لأتملّى وجهه الصبيح . . . دعوني لأطبع قبلة
الوداع على جبينه الألاق !

واندفع صوب الحجره التي سُجّي فيها عمه ، ومن
خلفه جمع يحاولون أن يردوه ، واقتحم الحجره كالسهم

المارق ، فلمح جسمان الفقيد ، عليه ملاءة بيضاء تكسوه ،
 وإذا هو تعرره رجفة ، وإذا وجهه تعلوه صُفرة ، وإذا
 شفتاه تتشجان فلا تنفرجان عن صوت ، وإذا ساقاه تميدان
 به ، فيخر على الأرض .

واتخذت الأهبة لسير الجنازة ، فأسفر النعش ،
 تتقدمه عصابة من المنشدين ، يوحدون الحى الذى لا يموت ،
 ويتلو النعش جماعة المشيعين من الرجال ، وراءهم صفوف
 من النساء خرجن يجاملن صاحبتين « أم خليل » فى
 المشهد العصيب .

وكان « حسن » يمشى فى الصف الأول ، محنى
 الرأس ، لا يجسر على أن يرفع بصره إلى النعش ، ولا تطاوعه
 مآقيه على أن يسكب عبرة تراها من حوله العيون .

وواصل سيره ، واجم القسمات ، تنتابه قشعريرة تقض
 كيانه ، إذ يقع فى وهمه أن عمه يطل عليه من النعش
 ليبصق على وجهه ، وليقول له :

عليك اللعنة يا قليل الوفاء !

وطال الطريق بالفتى ، وشقت عليه الخطا ، فجعل

يقتلع قدميه اقتلاعاً ، كأنما أصبحتا مشلولتين لا حس
فيهما ولا حراك .

وبلغ النعش غاية المطاف ، ووقف « حسن » على
شفير القبر ، مُحشَّب الجسد ، لا ينبس ، وهو يرقب
جسمان عمه إذ يُدلونه في تؤدة وحذر . . . وبغته ثارت
عليه مشاعره ، فراح يلطم وجهه ، ويضرب رأسه ، ويجذب
شعره ، ويرسل من حلقه صيحات محبول .

وأضاهها ليلة ليلاء ، ضائق الصدر ، مشوب الهواجس ،
تنوشه أحلام موحشة راعية ، إذ يتراعى له شبح عمه ،
مظلاً عليه من نعشه الكئيب ، ملوحاً له بيده المعروقة ،
باصقاً على وجهه في حنق وازدراء .

ومرت بالفتى أيام يكابد هذه المحنة العسراء من
هواجس اليقظة ، وأشباح المنام ، يخزه التفكير في أمره
أشدّ الوخز ، ويملاً أقطار نفسه من فزع وقلق وتحير .
ولكن المحنة أخذت تنجاب عنه شيئاً بعد شيء ، حتى
عادته طمأنينته ، وراجعته الثقة بنفسه ، فكان فيما بعد
يعجب من شأنه : كيف كان وجدانه مسرحاً لتلك

الأزمة المستحكمة التي كادت تقلب أوضاع عيشه ، وتقوض
صرح آماله ؟ !

١٠

قام الفتى مقام عمه الراحل في الإشراف على الخانوت ،
وأبقى الغلام المسمى « يوسف » يزاول البيع فيه ، ويصرّف
شؤنه بإرشاد منه .

وكان « حسن » قد أهمل على أثر وفاة عمه أن يخلق
لحيته وشاربه ، فلما وقف أمام المرأة يزيد أن يُعمل فيها
الموسى ، لبث ملياً يتوسم وجهه ، ثم أدبر عن المرأة ،
يعنى لحيته وشاربه ، لا يتحيف منهما ولا يمسهما بأذى . . .
وظل يراقب لحيته وهى تربيو ، وفى نفسه شغف بأن يراها
قد استدارت على عارضيه ، فينادةً تزدهر . . . وشدّ ما
سأه أن تظهر ضعيفةً النمو ، متفاوتة المنابت ، بها جوانب
جرداء ، وليس عليها مهابة اللحمى الجليلة التى تبهى العيون .
وبينما هو مكثب يوماً يفكر فى هذه اللحية العصبية ،

*Aguino, he never
forgot about make-up*

إذ انفتح له وجه من التدبير في هذا الشأن ، فنهض بغتة إلى صندوق أدوات التخفي المسرحي ، يجتلب خصلات من شعر ، وقارورة ملئت من صمغ ؛ وحقق إلى المرأة يفرس في أديم وجهه شعرات تتسق بها لحيته ، حتى لا يكون فيها من تفاوت .

وفي يومه ذاك ، خرج إلى الطريق يحمل صرة كبيرة ، قاصداً حانوت خياط غير بعيد ، فبسط أمامه الصرة بما حوت من ثياب عمه ، ورغب إليه في أن يعمل فيها يد التنسيق والإصلاح ، حتى تكون على قدره ، كأنما فصلت له ...

وتجلى « حسن » ضحوة يوم في زيه الجديد . . . زى الوجهاء من الشيوخ . . . على رأسه عمامة مهيبية ، وعلى منكبيه جبة زرقاء ، تنسدل على جسده ، وتنشق عند صدره ، فيشرق من تحتها قباء أصفر فاقع لونه . وفي قدميه مركوب أحمر يلتمع في وهج الشمس ، ومن كفه تتدلى سبحة طويلة ينقل بين إصبعيه حباتها الغلاظ ، ونظراته تتسرب خفية على الطريق يمنة ويسرة ، حتى

إذا مر بأحد يعرفه ، رفع إليه بالتحية يده ، وهو يسبل
جفنيه . . .

وجاءه صديقه « عبد الواحد » في الخانوت يزوره ،
فلما رآه في بزته الحديدية كاد يغلبه الضحك ، ولكنه
أمسك . . . وبعد أن استقر بهما الجلوس ، التفت
« عبد الواحد » إلى صاحبه يقول له :

أراك قد غيرت زيك !

فسكت « حسن » هنيئاً ، وهو مطرق ، يراعى سببته
في يده ، ثم رفع رأسه عنها يقول :

هذا الزى أوفق الأزياء لما أنا فيه من حياة جديدة . . .
لقد هانت الدنيا في عيني ، إذ بلوت ما فيها من خدعة
ونفاق ، وإني الآن زاهد في كل شيء ، أبغى أن أتفرغ
للعبادة ، أروى غلتي من فيض نور الله .

— والتمثيل يا بطل ؟ !

فرمقه « حسن » بالنظر الشرر ، وهو يقول :
التمثيل ؟ ماذا تقصد ؟ أتتهزأ بي يا « عبد الواحد » ؟
— معاذ الله يا صديقي . . . ولكنني أسألك عن جذوة

الفن التي كانت تتقد بين جوانحك... هل نجت
وصارت إلى رماذ؟

— هذا سر يعلمه الله ، ويفعل الله ما يريد...
بربّك لا تسألني في مثل هذا بعد!

واستأنف « حسن » تسيبحاته ، وصاحبه بجانبه يعجب
من أمره ، وبعد لحظات قال « حسن » :

سأقيم في البيت (حفلة ذكر) هذه العشية ، وإني
داعيك إليها ، فهل تحب أن تحضر؟

— سأجيب دعوتك شاكراً لك... وهل أقصر في
حضور حفلة ذِكرٍ مباركة؟

— نلتقي إذن في البيت بعد صلاة العشاء... .

— ستجدني حاضراً... .

وما إن دجا الليل ، حتى ضج صحن الدار بأخلاق
من الناس ، أكثرهم الطفيليون وشيوخ الجنائز ، ومن
يتشمّمون الولائم والمحافل كالقراش المبعوث ؛ فانبسط الحصير ،
وامتدت عليه الموائد ، تتوسطها قصاعُ الثريد ، مكلفة
بأفلاذ اللحم . وسرعان ما تعاقبت الأيدي ، تسعف الحلوق

المنهومة ، وقد تبارت الألسن تفتنّ في الثناء المستطاب
 على رب البيت ، داعية له بطول العمر ودوام البركة والخير .
 ونزل « حسن » إلى الجمع يترنح تحت عمامة ضخمة ،
 ويهز في يده سبحة كبيرة ، ومشى بين الموائد يتفقد
 الملتفتين حول القصاع ، وينثر عليهم بسمات هادئة في
 ألفة وإيناس .

ولما فرغ الحشد من الطعام ، أو على الأصح لما فرغت
 من طعامها القصاع ، أنشأ « حسن » يدس العطايا والمنح
 في أيدي العفاة ، ويهب لروح عمه ما أعد الله لمثل هذه
 الصالحات من مثوبة وجزاء .

وتداعى الناس إلى صلاة العشاء ، وتراصفت الصفوف ،
 ونودى « حسن » ليوم المصلين ، فتقدم في توقّر وتخشع
 يكبر الله للصلاة .

ولما انعقدت حلقة الذكر ، تصدّرها « حسن » يفتتحها
 بالأناشيد ، ودب الحماس في عروقه ، فترك الإنشاد
 لغيره ، وتناول هراوة غليظة يدق بها الأرض ، دقات
 تتعين بها المقاطع ، كأنه على رأس جوقة موسيقية ضابط إيقاع .

وكلما حى الإنشاد والترديد ، توالى دقات الهراوة
 واشتدت ، فتنطوح أعناق الذاكرين ذات اليمين وذات
 الشمال ، وتطول قاماتهم وتقصر ، وتميل نحوهم حتى
 توشك أن تتكصف ، وهم يجأرون :
 الله حىّ ! . . . الله حىّ !

وبدا « حسن » مسحوراً بما يرى وما يسمع ، واستغرقته
 النشوة كل الاستغراق ، فجعل يتلعّب بقامته أيما تلعب ،
 وينتفض برأسه سريع الانتفاض ، وحوايا عمامته ينحل
 منها النظام ، فتسترسل على وجهه تخفيه . وما كاد الإنشاد
 يبلغ مداه حتى سقط « حسن » فاقد الوعى .

واستطاب الشاب حياة التعبّد والتعهد والصلاح .
 فأكثر من محافل الذكر يعقدها في بيته ، وأنس بالمساجد
 وضرائح الأولياء ، يقضى فيها جلّ وقته ، وحرص على
 إقامة الولائم ، وتوزيع الصدقات بلا حساب . فذاع له

صيت ، وتهافت عليه شيعة وأتباع .
 وأرغل الشاب في نزعته الدينية ، يتكثر من الصلاة ،
 ويزداد من التسبيح ، وقلبه مطمئن بذلك الإيمان الذي
 يغمره ، فيُطهر نفسه من أدران الفساد . . .

وكان يتعقب مجالس الفقهاء والوعاظ ، يتروذ من
 أحكام الشرع ، ويتقصد أخبار السالفين من أهل
 الزهد والتقوى . فإذا خلا إلى نفسه عكف على القرآن يرتله ،
 ملتصقاً فيه شفاء الروح .

وتحمس الشاب في تديّنه ، فجعلت نفسه تتجلى له
 له بإسراقات يطول فيها توجّده ويشتد هيامه ، وكأنما عز
 عليه أن يستأثر من دون عامة الناس بهذا الصفاء الروحي ،
 فهنأ إلى أن يشركه في ذلك جمع الغافلين من عباد الله ،
 وواتاه شعور قوى بأن الله قد اصطفاه لعمل عظيم .

ونودي للصلاة من يوم الجمعة ، فعجل الشاب إلى
 المسجد يتمم بالأذكار والتسابيح . . .

وبينا هو في المسجد ينصت إلى الإمام يلقي خطبته ،
 إذ أحس بنزعات في صدره تضطرم ، وصدره بها

يكاد يتفجر ، فنهض من فوره يتخطى الصفوف وهو ذاهل
عما حوله ، لا يبالي نعى الناس عليه ، واستنكارهم له ،
مطلقاً من حنجرتة صوتاً أجش يقول :

أفسحوا لى طريقى ، أبلغ رسالتى !

وبلغ المنبر ، وقد جاوزه الخطيب إلى المحراب يتأهب
لإقامة الصلاة الجامعة ، فاقتمم «حسن» باب المنبر
يرتقى درجاته ، وصاح مهتاج النفس ، كأنما به مس :
يا أيها الناس . . . اسمعوا ما أقول ، أهدكم سواء
السبيل . . .

واشرأب الناس يعجبون من هذا القزم الأشوه ، وهو
يترنح تحت عمامة حمراء تثقل هامته ، ويلوح بكلتا يديه
كأنهما سوطان يضربان الفضاء ، متابعاً قوله :

إنى فى دعوتى إليكم مسير لا مخير . . . لقد ألهمنى
الله أن أدلكم على الحق ، وأتجافى بكم عن الضلال . . .
فصدقونى إن كنتم مؤمنين !

فتعالت هممة الناس ، يتفاوضون فى شأن هذا الشاب
الذى قام إلى المنبر يشغل الناس عن أداء الجمعة فى وقتها

المعلوم . . . وصاح من الجمع رجل يقول :
 ألا تنحون عن المنبر هذا المأفون ؟ !
 واندفع « حسن » يخطب قائلاً :
 طوبى لمن تبعنى ، وويل لمن أعرض عنى !
 فلما سمع ذلك إمام المسجد ، قال في صوت هادئ
 رزين :

هذا لغو حرام في وقت الصلاة ، فأسكتوا صاحبه ،
 وخذوا في صلاتكم يرحمكم الله !

فبرز من الصف الأول عملاق جسيم يتوخى المنبر
 في رفق ، وأشار بيده إلى « حسن » أن ينزل ، فلم يعبأ به ،
 فارتقى إليه المنبر وثباً ، وأخذ بقفاه يحجره ، ثم قذف به
 على باب المسجد عنوة ، وتركه مذهولاً عما جرى له . . .
 فوقف يفرك عينيه مخبول النظرات ، كأنه يفتيق من حلم .
 وألقى لمة من صببية الطريق يلتفون حواليه ، فما أسرع أن
 اكفهر وجهه ، إذ أدرك ما حل به ، فجعل يتمتم في يأس :
 حتى أنتم أيها المصلون . . . فيكم الحساد المنافقون !
 ومضى يسوق قدميه إلى البيت ، يلوذ بخلوته فيه .

وكان لهذا الحادث في نفسه أسوأ الأثر ، فاعتراه انقباض وسهوم ، وتراخي عن فرائض الصلاة ، وأهمل عمامته تتضاءل على رأسه ، وفضن إلى أن سبحته تشغل يده على غير طائل ، وتعطله عن أداء عمله ، فأخلى منها يده ؛ ولم يعد يغشى مجالس الفقهاء والوعاظ ، وأبطل ما كان يقيمه من الولائم ، ويعقده من حلقات الذكر . . . وبدا في الخانوت متكسفاً في ثيابه ، تسلمه همومه إلى تفكير عميق .

ويوماً قدم عليه صديقه « عبد الواحد » يبادره بقوله :

أجدك مهموماً . . . فما بك ؟

— وهل في الحياة ما يسر ؟

— ماذا يضريك ، وأنت من عيشك في رخاء ويسر ،

والخانوت بحمد الله وافر السلع ، رابح التجارة ؟ !

— أحسبت المال كل ما أعنى ؟ إن روحي تصبو

إلى ما هو أسمى من رخاء الحال ، ووفرة المال .

— أوضح لي ما تقصد . . .

— حتى أنت يا « عبد الواحد » لا تفهمني ؟ اعلم

يا صديقي أنى لم أنخلق فى هذه الدنيا لأبيع الجبن والزيتون ؛
 فلقد وكلت إلى إرادة الله مهمة على أن أضطلع بها لهذه
الامة الضالة الظالمة !

— أظنها مهمة فنية يا « أبا على »

— لأنها مهمة جديلة يزنجر بها قلبى ، ولا بد أن أفتى

فى سبيلها لا بد

— عليك أن تكافح . . . والله ناصرك .

— إنى مكافح ما حييت ، متوكل على الله مسعاى ،

وسيعلم الحساد المنافقون أى منقلب ينقلبون .

وطال به الصمت ، مطرقاً برأسه ، يغمشى سحنته عبوس واكتئاب .

فأقبل عليه صاحبه فى تल्पف به ، وإشفاق عليه ،

يقول له :

هل لك فى نزهة نروح بها عن النفس ؟

— إلى أين تريد أن أمضى معك ؟

— إلى « قهوة الفن »

— لا أحب أن ألتقى هنالك بأرلثك الحساد الذين

يكيدون لى .

— ما لنا ولهم ؟

وأخذ « عبد الواحد » بيد صديقه « حسن » يتهادى به إلى الطريق ، حتى انتهت بهما الخطا إلى باب « قهوة الفن » . . .

وما إن لاح « حسن » لرواد القهوة حتى سارع إليه بعضهم يحتفون بمقدمه ، ويسألونه عن سر غيبته ، وما هي إلا أن اندمج في حلقة من الصحاب يتحاورون في شئون المسرح ، ويتنازعون الحديث فيما يعترى الفن من تدهور وانحدار . . .

وألقى « حسن » نفسه في الجمع ، يلقي خطاباً رائع اللهجة يشيد فيه برسالة الفن الرفيع ، ويتغنى بواجب الفنان الأصيل ، ويدعو إلى توطيد قواعد التمثيل في هذا البلد الأمين . . . فقوطع الخطاب الحماسي بالتصايح والتهلل والتصفيق ، وقال له أحدهم وهو يهز يديه في حمية وغيرة :
أنت لها . . . أنت لها يا « أبا علي » . . . أنت لها دون غيرك . . . فلتتقدم ، ولتشق لنا الطريق !

وأضى الفتى سهرة الليل في أحد المسارح يشهد طائفة

أبو علي
very impressionistic
change of more pale to dark
next

من الممثلين في رواية عنيفة هي مأساة فاجعة . . . ورجع
أدراجه إلى البيت ، تصطرع في رأسه آمال وأهداف !

وبعد يومين اثنين زاره صديقه « عبد الواحد » فألفاه
قد انتبذ من الحانوت ركناً ينكش فيه ، وعيناها تتيه نظراتهما
في آفاق فساح . . . فألقى عليه التحية ، واتخذ مجلسه بجواره
يتأمله ، ثم مال على أذنه يسأله :

ماذا يشغل بالك يا « أبا علي » ؟

فأجابه « حسن » مختليج الشفتين ، مرعش اليدين ،
يخافت بقوله :

سأقص عليك رؤيا . . . رؤيا ظلت تطرقني في
المنام ليلتين متواليتين . . . رؤيا ناصعة كفلق الصبح ،
أشبه بالحقيقة الواقعة . . . لقد وجدت يميني تقبض على
محول ضخم ، أهدم به البيت والحانوت معاً ، ومن ورأى
كلاب تنبحني ، وتهمّ بي لتمزق جسدي ، وأنا ماض
في الهدم والتقويض ، مستهزئ بنباح الكلاب ، غير مبال
بما تهم به من افتراس . . . وكنت أثناء ذلك أرتدى لبوس
« هملت » .

— لبوس « هملت » ؟ !

— يحق لك أن تعجب أيها الصديق، ولكنها الحقيقة أخبرك
بها ، أو هي الرؤيا أقصها عليك . . .

— ثم ماذا يا « حسن » . . . ؟

— وكنت أراني وأنا أهدم البيت والحانوت بيمينى ،

أشيد بيدي اليسرى صرحاً عظيماً لم أتبين شكله على وجه
التحديد ، إذ كانت تنبعث منه أنوار تخطف الأبصار . . .

وإذا أنا أجد « قيس بن الملوّح » — مجنون « ليلي » — تنشق

عنه الأنقاض ، فيعانقنى أحرّ عناق . . . وهو يقول لى

فى صوت رقيق : « تقدم . . . تقدم . . . وإلى الأمام . . .

إلى الأمام . . . لا تهن ، ولا تجزع ! . . . » . وإذا الظلمات

الحوالك ، والأنوار السواطع ، تتعاقب فى ضجة وهتاف . . .

فما قولك يا صديقي فى رؤياى ؟

— رؤيا عظيمة ولا شك . . . ولكن ما تعبيرها يا

« أبا على » ؟

— تعبيرها فى كلمتين قالهما لى « قيس » : « تقدم ،

لا تجزع ! . . . »

لم تكن أضغاث أحلام أن يفقد « حسن » بيته
وحانوته مع الأيام . . .

لقد عرضهما للبيع ، صفقة واحدة ، ولقد عقد الصفقة
على غير تصعّب في المساومة . . .

وكان حقاً عليه - وقد تمّ له بيع البيت والحانوت -
أن يحقق أمنيته العزيزة . . . أمنية الفن .

فعمل على تشييد مسرح من خشب في الحى الحسينى ،
منفقاً من سعة ، متعجلاً كل التعجل . وكيف التوانى
والمال بين يديه وافر ، والنار المقدسة بين جوانحه تتوقد ،
والهاتف يصيح به :

تقدم . . . لا تجزع !

وأعلن الشاب نبأ تأليف فرقته ، وإقامة مسرحه ،
في إعلانات ملونة على الجدران ، في مختلف الشوارع والمسالك
والدروب . . .

وفي الصبيحة من كل يوم ، ينشط ماضياً إلى المسرح ،
يرقب الأعمال ، ويشهد التجارب ، ويوصى بصنع الأستار
والملابس والأثاث .

ما كان أشقه من جهد متعدد الجوانب والأنحاء . . .
بيد أن « حسناً » ظل يسديه بسام الثغر ، في عزم ومضاء ،
لا تدركه منه ملالة ولا سأم .

وقد جمع الشاب أعضاء فرقته من ناشئة الممثلين ،
محترفين وهواة . . . بانياً عزمه على أن يخلق منهم خلقاً
جديداً ، ينافس بهم الفنانين الأعلام ، ممن تزدان بهم
المسارح والحدائق وجمعيات التمثيل .

فأما « عبد الواحد » فقد أسند إليه « حسن » منصب
المدير الفني للفرقة ، وأرصد له في الحساب راتباً شهرياً
لم يكن صاحبه يتوهم أنه يحصل عليه . وفوق ذلك أودعه
مقداراً من المال لينفق منه على شئون الفرقة ، فصال
« عبد الواحد » وجمال ، وقام بعمله في همة الأبطال !

وكان « حسن » يهمل على المسرح ، متهادى المشية ،
وقور الهيئة ، مترفع النظرات ، وفي يده عصاً ثمينة يشير

بها إلى ما حوله ، وإلى من حوله ، إشارات خواطف ، وهو يقول :

هذا المكتب ليس هنا موضعه . . . كرهه ذلك المنظر ،
 فحطموا ألواح . . . السكون . . . السكون . . . لا اعتراض
 لأحد على ما أقول . . . إلقاءك أيها الولد غاية في سوء . . .
 وأنت يا هذا في أى مزبلة تعلمت التمثيل ؟ . . . اسمع
 يا « عبد الواحد » ، يجب أن يحضر النجار غداً ما طلبناه
 من الكراسى ، فإن تأخر بها عن الموعد فلتهشمها على
 رأسه . . . لا هواده في العمل ، ولا خلف في المواعيد . . .
 أريد الإتقان في كل شيء . . . إننا نعمل ، لا نلعب !
 فلا يجيب « عبد الواحد » على ذلك كله إلا بقوله :
 أمرك مطاع يا أستاذ . . .

ومضى جن الليل ، استدعى « حسن » مدير فرقة الفنى ،
 فأجلسه إلى جانبه ليملى عليه روايته التى اعترزم أن يفتح
 بها الموسم التمثيلى العظيم لمسرحه الجديد .
 وطالت ليالى التأليف ، تمضى فيها الساعات تلو
 الساعات ، والمؤلف يعيد ما بدأ ، ويزيد فيما أملى ، ولا

يفتأ يراجع الفصول ، للصقل والتنقيح ، فإذا استشعر أن صاحبه به سامة ، وأنه ضائق بإملائه ، قال له :

صبرك يا « عبد الواحد » وإنما أريد أن تخرج الرواية محبوكة محكمة ، وإنما لا نضعها لتكون رواية ليلة أو رواية أسبوع . فلعمرك ليستمرن تمثيلها شهوراً بعد شهر . . . !

وكان « حسن » إذا جاس للتأليف والإملاء ، يستنزل الوحي ، ويستصني القريحة ، تكمّش في ثيابه على متكأ ، وبدا مقلقل الأوصال ، مضطرب الصمت ، يدخن لفافة التبغ ، ويحملق في سقف الحجرة بعض الوقت ، ثم يقفز من المتكأ وقد ضاء وجهه ، وراح يدور في الحجرة دورات ، وهو يقول :

أنتِ نور قلبي يا حياتي . . . نور قلبي أنتِ يا حياتي . . .
يا حياتي نور قلبي أنتِ !

ولا يزال يكرر هذه الجمل ، يتمطق ويتشدّق ، ويخرج الحروف مخارج مختلفة ، موالياً التنعيم والترخيم . . . ثم يشافه « عبد الواحد » بقوله :

سر البلاغة في مزج الكلمات وفي التأليف بينها حتى

تشكّل في جمل فنية . . . ما أصعب ذلك وما أشقّه . . .
 وهل ثمة فارق بين الموسيقى يرتب النغمات لينسق منها
 اللحن ، وبين الكاتب يؤاخي بين الكلمات لينظم منها
 الجملة ؟ !

ثم يضع يده في خاصرته ، ويعاود سيره ، يقول :
 اكتب : « نور قلبي أنت يا حياتي » !

حلت الليلة الموعودة ، ليلة افتتاح التمثيل في المسرح
 الحديد ، فتألفت ببابه الأضواء ، وازدحم فيه المتفرجون
 من عامة أهل الحيّ .

ودقت الساعة العاشرة ، وما برحت الستارة تخفي وراءها
 سر التمثيلية التي يعلو بها شأن الفن الرفيع . . .
 وتمشت بين الصفوف همهمة التملل والضجر ، واستحالت
 الهمهمة تصفيقاً ومناداة برفع الستار .
 وبرز « حسن » من جانب المنصة ، في لبوس التمثيل ،

يمتشق سيفاً لامعاً تحت الأضواء ، وعلى رأسه عمامة ضخمة
ترصعها اللآلئ المسرحية البراقة . وانحنى أمام الستارة
للجمهور المتطلع ، فأسرعت الأكف تصفق لتحيته ،
فاعتدل في وقفته مشرق الجبين يقول :

سادتي الأفاضل . . . شكراً لكم على حفاوتكم بنا ،
وتقديركم لنا ، وإقبالكم علينا ، هذا الإقبال المنقطع
النظير . . . معذرة إليكم ، إذ يتأخر عرض الرواية فترة ،
لضرورات فنية يقتضيها الأمر في ليلة الافتتاح . . .
فانتظروا خمس دقائق ، ينكشف لكم الستار .

فقام إليه صائح يسأله :

هل أنت « حسن أبو علي » الممثل الخطير ؟

فانحنى عميد المسرح علامة الإيجاب ، وكانت انحناءته
أرستقراطية أثارت موجة من التضاحك بين الناس .

فشمّر الصائح عن كفيه ، وصفق يغني بقوله :

« حسن أبو علي سرق المعزى ! »

فردد جمع من النظارة أغنيته ، فجعل عميد المسرح
يشير إليهم أن يمسكوا ، فلم يفعلوا ، فدخل من جانب

المنصة ، يتوارى خلف الستارة ، وهو يبرطم بقوله :
سفلة . . . أوغاد !

وألقى المنصة يسودها هرج ومرج ، والممثلون مضطربون
عليها ، لم يكملوا ارتداء الثياب ، واتخاذ الزينة ، ولم يتم لهم
التشكل الملائم لموقف كل منهم في الرواية . . . وما زال
منظر الفصل الأول ناقصاً بعض المقومات ، فتغيّظ الشاب
كل التغيّظ ، وأخذ يركل ما أمامه من أثاث ، وهو
يقول :

تريدون أن تفضحوني يا كلاب ؟ !

وما هي إلا أن وقف وسط المنصة يشهر سيفه ، كما
كان يصنع « دون كيشوت » . . . وصرخ قائلاً :
سيبدأ التمثيل بعد خمس دقائق . . . فليستعد كل منكم
لأداء ما عليه ، ومن تواني فصلته من الفرقة في الحال .

ودنا « حسن » من جانب المنصة ، يسارق النظر إلى
الجمهور في قاعة المسرح ، فألقى أحد المتفرجين يعتلى
مقعده ، ويصيح بملء فيه :

نريد « بدرية » . . . نريد « بدرية » !

فارتجت القاعة بتريد هذه الجملة ، على إيقاع من
التصفيق بالأكف ، والدق بالأقدام . . .

وكانت الفرقة قد أعلنت أن « بدرية » مطربة المشرقين
ستظهر أول مرة في بطانة من الموسيقيين الأفاضل بين فصول
الرواية . . .

وتقدم « عبد الواحد » وفي يده عصاه التي اتخذها
لتكون دقاتها أذاناً بإزاحة الستار ، ومال على « حسن »
يقول له :

ألا ترى أن نقدم « بدرية » تطرب الجمهور بإحدى
الأغاني ، ريثما نعد العدة لبدء التمثيل ؟
فأزهرت عين عميد المسرح ، وهدق إلى مدير الفرقة
الغنى ، قائلاً له :

كأنى بك تحرضنى على أن أحطم عصاك هذه على
رأسك !

— بالجمهور يطلب « بدرية » . . . وعلينا أن نستجيب
له . . .

— فليطلبها الجمهور حتى الصباح . . . لا أبداً روايتى

بغناء . . . هذه إهانة للفن الرفيع الذى أريد إحياءه !

— وماذا أنت صانع ؟

— سترى . . .

وخرج من مفرق الستارة ، يجر سيفه ، فهدأت
الجلبة ، ووقف وقفة كبرياء يخاطب النظارة بقوله فى لهجة
لا تخلو من خشونة :

سيداتى وسادتى . . . سألقى على مسامعكم « منولوجاً »
تمثيلاً جديداً من تألبنى . . .

فانشق الناس بعضهم على بعض ، ففهم من يستنكر ،
فيعود الجلبة والضجيج ، ومنهم من يسكت المشاغبين
ويطلب إلى الجمهور الإنصات للإنشاد .

وافبرى « حسن » يلتقى « المنولوج » فى ضجة القوم ،
محاولاً التغلب عليها بقوة الإلقاء والتمثيل . . .

وهادنه الجمهور لحظة يستمع إليه ، فازدادت حميته ،
ولكنه ما لبث أن سَكَتَ سمعه شخراً انطلقت من حلق
عابث ، فجمد الشاب فى مكانه كالمصعوق ، وشبَّ
صياح الجمهور به عوداً على بدء ، فصرخ فى ثورة :

أخرجوا السافل الذي . . . أخرجوا الدساس المأجور . . .
أخرجوه من المسرح على الفور . . .

وذابت صرخته خلال الضجيج ، لم يسمع بها أحد ،
ولكن الشاب خيّل إليه أن أمره قد نفذ ، فاعتدل يلقى
« المتولوج » على الصوت ، وإذا هو يسمع من يقول
في لهجة النائح المعول :

يا مصيبتنا فيك يا « حسن أبو علي » . . . الله يرحمك
يا بطل الفن !

واختلط الشخير بالصفير ، وامتزجت الأغاريد بالنواح ،
وأخذت الأقدام تدب في الأرض ، وارتفع نداء القوم :

نريد « بدرية » . . . نريد « بدرية » !

وجنّ جنون عميد المسرح ، فزغق يقول :

أيها الأوغاد الرعاع . . . سأطردكم من مسرحي طرد
الكلاب ! . . . لا بد أن فيكم مأجورين مدسوسين على
يريدون أن يفسدوا أمرى ، ويحبطوا عملى . . . تبناً للحاقدين !
واستدار يفرق الستارة ليدخل المنصة ، وهو شاهر
سيفه ، وقد أزمع أن يستنجد برجال الشرطة ، لإخراج

المشاغبين من مسرحه ، فألقى الممثلين يتشاكسون ، ويشغب بعضهم على بعض ، فهجم عليهم يطوح فيهم سيفه ، فأعثره كرسي في طريقه ، فسقط على وجهه لا يعي . . .

وأما المتفرجون ، فمنهم من خرجوا يتجمعون على شباك المسرح ليستردوا ما أدوا من نقود ، ومنهم من جعلوا يعبثون بالكراسي ؛ يقلبونها رأساً على عقب ، ويقذفون بها هنا وهناك ، ومنهم من عمد إلى المصابيح يحطمها شر تحطيم . . .

واشتعلت النار فجأة ، فشاع الذعر بين القوم ، وتعالّت أصوات الاستغاثة . . .

وما عتَم المسرح كله أن توهجت فيه ألسنة النار ، تُنذره بالدمار . . .

وتراءى « حسن » على مقربة من مسرحه المحترق ، مرعش الجسد ، زافع النظر ، يتبين في الناس « عبد الواحد » ويناديه بين آن وآن . ولكن المدير الفنّي كان قد هرب ناجياً ببدنه ، وما لبث أن التقمته قارعة الطريق !

ذهبت ثروة « حسن » هباءً في رماد مسرحه المحترق ،
 فاضطر أن يخلى الشقة الفسيحة التي كان يستأجرها ،
 بعد أن باع منزله ، وأن ينتقل مع زوج عمه الراحل إلى
 حجرة أرضية وضيقة في حي « السيدة » .

ولبث رهين المحبسين : حجرته تضيق به ، وهمه يحاصره .
 ولازمته جهامة ، يقلل من الكلام إذا دعت إليه حاجة ،
 وتتصعد مناجاته زفراء وحسرات .

وحيثما تعروه الثورة على نفسه ، فيعض أنامله ، ويلكم
 الهواء بقبضته ، وهو يقول :

ويل للحاقدين الأندال . . . لأسحقنَّهم سحقاً !

وكانت زوج عمه الراحل تغادر الحجرة ؛ لتحتال
 في طلب القوت ، متنقلة بين بيوت الخيَّرين ممن كانت
 لهم بها سابقة معرفة ، فيجودون عليها بما تيسر ، فتثوب
 إلى حجرتها تحمّل الطعام لها ولربيبها قعيد الدار . . .

وفيا هي تجادله يوماً ، قالت له :
 إلى متى تحبس نفسك ؟ كأنك استطببت الكسل . . .
 العمل لى ، والنوم لك !
 فحملق فيها يقول :
 أى نوم ؟ إنى أقضى الليل ساهراً ، وأنتِ يجانبى
 تغطين فى منامك !

— وفيم سهرك يا زين الشباب ؟
 — أفكر فى خطط العمل ، وأرسم برامج التنفيذ .
 — خيبة الله عليك ، وعلى خططك ، وبرامجك . . .
 ماذا أفدنا منها إلا ضياع التجارة ، وخراب البيت ؟ !
 — لا بأس مع الحياة . . . سترين . . . إن لى إرادةً
 تغلق الصخر ، وتصهر الحديد . . .

وفى الغداة ، بارح « حسن » حجرتة ، عاقداً عزمه
 على أن يبحث عن عمل ، يتكسب به ، وقضى نهاره
 يجوب المدينة ؛ يعرض نفسه على من يظن بهم أنهم
 معينوه على أمره ، فلا يظفر منهم بطائل . . . ورجع إلى حجرتة ،
 مهذوم القوى ، يتصور من الجوع ، فلما سألته زوج عمه :

ماذا أجديت ؟

رفع يده ، علامة التهديد والوعيد ، وشفثاه المصفرتان
تنفرجان عن قوله :

سوف أسحقهم . . . هؤلاء الحساد الأوغاد !

واستقبله الصباح ، وهو يستأنف سعيه ، في مناكب
الأرض ، ينقب عن عمل يقوته ، وعاد كما عاد أمس ،
مخفق المسعى ، خاوى الوفاض ، أنامله بين أسنانه يقرضها
في ذلة وانكسار .

ومرَّ به أسبوع ، على هذه الوتيرة ، ينفتل من حجرتة
مع انبثاق الفجر ، ويثوب إليها في غيوب الشمس ، وقد
شرق في الطرقات وغرب ، لا يرجع من سيره إلا
مكدوداً ، طاوى البطن ، ينوشه هم واضطراب .

وكان يتجافى عن لقاء من يعرفهم ؛ ممن يعملون
في دور التمثيل ، أو يتصلون بها من قريب أو بعيد .
ولا سيما صاحبه « عبد الواحد » ، فإذا لمح « حسن » عن كذب
منه ، ازورَّ عنه ، وزاغ في معاطف الطريق .
وربما ضمته إحدى القهوات ، في أطراف الحى ،

فيسترعى بهيئته وشارته أنظار بعض الجالسين ، فيقع في وهمه أنهم راغبون في التعرف إليه ، ولا يعلم أن يبذل لهم تحية متفضلة ، ويأخذ معهم في الحديث عن نفسه ، يقص عليهم نبأ جهاده في سبيل الفن ، ويطنب في بيان خططه وبرامجه لترقية التمثيل . . . فإذا ملّ أحدهم ثرثرته ، ونأى عنه بجانبه ، رمقه « حسن » بنظرة حامية وهو يغمغم :
يا للزمن الغدور . . . من أين للبهائم أن تفهم عظمة الفن ، وتفقه حديثه ؟

وإذا أنيسَ به أحدهم ، فأجلسه معه ، وعرض عليه لفاقة تبغ ، ودعى له الساق ليوافيه بلون من ألوان الأشربة ، تطلقت أساريه ، وقال لجليسه :

سيدي . . . أنت رجل تقدر الفن وأهله ، وإني أشكر لك حفاوتك وتكريمك . . . ولكنني قبل أن أقبل ما عرضته عليّ ، أحب أن أسمعك « منولوجاً » من « المنولوجات » التمثيلية . . .

وسرعان ما يبدأ إنشاده في حماسة واهتياج ، ثم يقبل على اللفاقة والشراب إقبال ملهوف مشوق !

بلغ الهزأل « بأبى على » منتهاه . . .
 واستبانأت فيه العلة المشؤومة ، علة ذات الرثة . . .
 فاستبد به السعال ، يفتك بصدرة فى أيام . . .
 وعاده صديقه « عبد الواحد » وهو فى ساعته الحاسمة ،
 فأخذ « حسن » بيده ، يجمع له :
 لقد رسمت خطة دقيقة ، أريد أن أسرها إليك . . .
 ولكن حذار أن يعلم بها أحد . . . فالخاقدون كثير ، وهم
 يقفون لى بكل مرصد . . .

فحنا عليه صديقه ، يرتت كتفه ويقول :
 عهد الله بينى وبينك ألا أفشى لك سرّاً يا أستاذ . . .
 فسنتحت على فم المريض ابتسامه شاحبة ، وقال متقطع النبرات :
 أدن أذنك منى . . . اسمع . . . أريد أن أنشى معهد . . . تمثيل !
 ولم يكذ يبلغ من جملته هذا المبلغ ، حتى أخذته غيبوبة
 الاحتضار ، تسدل على عينيه الستار . . .

رحلة صيف ...

« بليغ أفندي » موظف حكومي ، يشهد له رؤساؤه
ومرءوسوه بصفاء السريرة وطيبة القلب ، وهو يؤدي عمله
الموكل إليه على الوجه المرضي . وقد مرت به أعوام متواصلة لم
ينل إجازة في صيف أو في شتاء ، ينصرف مصباحاً إلى مكتبه
يزاول العمل ، ويقصد ممسياً إلى القهوة يتسلى ويتفرج ،
ولا يزال دائراً في هذه الحياة الراتبة بين القهوة والديوان .

وحل صيف اشتد فيه القيظ ، فاستشعر « بليغ أفندي »
الحاجة إلى الراحة والاستجمام ، فقد نهكه العمل الموصول ، ولم يعد
موفور الصحة كما كان . فعجل إلى رئيسه يعرض شكاته على
استحياء ، ويستمنحه إجازة يرفه بها عن نفسه ، وما أسرع
أن أجابته الرئيس إلى طلبته في سماحة وارتياح .

وصدّر « بليغ أفندي » عن مكتب رئيسه ، وقد شاعت
على وجهه طلاقة وبشر ، ولكنه ما عزم أن خلا إلى نفسه يسائلها
والحيرة تنازعه :

أين يقضى هذه الإجازة ؟ أيجعلها مناصفة بين مسكنه

الكئيّب الموحش ، لا جليس ولا أنيس ، وبين قهوة المألوفه
التي تماثل في صخبها وضجتها سوق المزايدة ؟

لقد نصح له صديق يلهج بالطب أن يرحل عن العاصمة ،
وأن يتخير له مكاناً يختلف في جوه ونى بيثته عن هذا المكان
الذى عاش فيه السنين الطوال ، فلو فعل ذلك لظفر براحة
النفس ، وتدارك من صحته ما وهن .

آن « لبلوغ أفندى » أن يؤمن بنصيحة صديقه المتطبّب ،
فليرتحل على عجل .

ولم يكن أمامه إلا إحدى اثنتين : الأولى أن يذهب إلى
الحاج « رزق » في « كفر سفيطة » ، والأخرى أن يقصد
الأستاذ « رشادا » في « الإسكندرية » . . . ولبث ساعة يفاضل
بين قريبه الحاج « رزق » وصديقه الأستاذ « رشاد » ، ويوازن
بين الحياة في الريف والحياة في المصيف ، بين « كفر سفيطة »
القابعة بين القرى والحقول ، و « الإسكندرية » عروس البحر
المحوّطة بالمباهج والمسرات . وانتهت به المفاضلة والموازنة إلى
تلبية هاتف القلب ، فأثر الرحيل إلى الشجر .

حقاً سيفاجأ به صديقه الأستاذ « رشاد » ، فما كان ليتوقع

زيارته إياه ، ولكن ماذا يحجم به عن مفاجأته ؟ ألم يستصف
« بليغ أفندى » صديقه « رشادا » غير مرة في زوراته للعاصمة ؟
لطالما حل بداره دون دعوة أو استئذان ، وكثيراً ما ردد على
مسامع « بليغ أفندى » أن بيته في « محرم بك » يرحب باستقباله
في أى وقت يشاء . ولشدّ ما أثار شوقه إلى زيارة « الإسكندرية »
بما كان يفيض فيه صديقه من وصف خلاب حياة الشاطئ
ومتعه الفاتنة .

إن « بليغ أفندى » لم يشهد الثغر ، ولم تكتحل عيناه
بمراى البحر ، ولكن ما نقلت إليه الصحف من صور ومناظر ،
وما ارتسم في مخيلته من أصداء الأحاديث ، كان يتمثل له وهو
في طريقه إلى دار صديقه في حيّ « محرم بك » فيملأ صدره
طمأنينة ورضا ، ويمنى نفسه باستمرار البهجة والمتعة والإيناس .
وظل يتعرف الطريق حتى وافي الدار قبيل الظهر ، فإذا
هى دار سامقة من تلك الدور الحديدية التى تتكاثر طباقها
ابتغاء الريح ، فتزدحم فيها الأسر ازدحام الخلايا بأسراب
النحل ، وكان صديقه « رشاد » يقيم مع أسرته في شقة عالية
من هذه الدار .

وصعد « بليغ » الدرج ، يحمل معه حقيبته المختنقة
 بألوان الهدايا . فبلغ باب الشقة مبهور الأنفاس ، يتفصد من
 جبينه العرق ، وضغط زر الجرس ، فتعالى منه صوت زنان
 تجاوزت به الأرجاء ، وما لبث الباب أن انفرج عن امرأة
 مفرطحة رخوة ذات قسبات ناصلة ، عليها جهامة وعبوس ،
 وهي تقول في همهمة ، وكأنها تنتزع الكلمات من فمها
 انتزاعاً :

دق الجرس ممنوع . . . ممنوع يا ناس !
 فقال لها « بليغ » وهو يتلعم من حيرة وخجل :
 . . . المعذرة . . . لم أكن أعرف . . . أنا « بليغ » . . .
 صديق الأستاذ « رشاد » . . . أخبريه أني حضرت .
 واجتلب لقمه ابتسامه مضطربة لم تعرها « المفرطحة
 الرخوة » جانب اهتمام ، وقالت له وهي تضع سيابتها على
 فمها هامسة :

أرجو منك يا « بليغ أفندي » ألا تعلى من صوتك ، وألا
 تبدى حركة مسموعة . . . إن السيدة لم تذق النوم منذ ليل . . .
 هلم . . .

وخطت في الردهة خطوات سلحفاة ، و « بليغ » يقفو
 أثرها مختلساً النظر إلى هيكلها العجيب ، فخيّل إليه أن أوصالها
 يسوخ بعضها في بعض كما تسوخ كرة من العجين إذا تدهرجت
 على منحدر ، فاتخذت لها في كل لحظة كياناً جديداً وشكلاً
 طريفاً .

وما إن بلغت به « الرخوة » حجرة الزوار حتى استخفت
 عنه ، فراعته الصمت القابض الضارب أظنابه في البيت ، واتخذ
 مجلسه مستوحشاً يستعيد ما استقبلته به المرأة من قول ، ويحاول
 أن يستشف ما غمض عليه من الأمر ، وكان ينتهي إلى سمعه
 في الحين بعد الحين همسات قلقة ، وتنهيدات حرجة ، وخطوات
 حذرة ، فتريده من اضطراب وضيق .

وبينا هو كذلك إذ علت صيحة نسوية تم عن استغاثة
 والتبايع ، فنهض « بليغ » من مجلسه يرجف ، وتوالت بعد
 الصيحة صيحات أشد وأنكى ، فجعل « بليغ » يدور في
 الحجرة تستبد به الخيرة ، ثم سكن البيت ، وأطبق الصمت ،
 فانتفى « بليغ » إلى مقعده يمسح وجهه ويروّحه بمنديله ، وهو
 مصغ إلى كل نامة تصدر .

(تخمين صوت)

وتوارد على سمعه صرير باب الشقة ينفتح ، وما هي إلا أن
 لمح صديقه « رشادا » يدخل على رقية وتخوف ، عارى الرأس ،
 أشعث الشعر ، مختلج الملامح ، فحياً « بليغاً » تحية خاطفة ،
 وأردف يسأله في لهفة :

ألم يتم الوضع ؟

وأجابه « بليغ » في ارتباك :

أى وضع ؟

وتشابكت على فم « رشاد » بضع كلمات وجمل تكشف
 الستار عن تلك الحالة الشاذة التي تسود الدار . . . إن « رشادا »
 ينتظر « الحادث السعيد » أول مرة ، وتلك زوجه تعاني الخاض
 منذ يومين ، وقد بلغ بها عسر الولادة كل مبلغ ، فاضطربت
 أعصاب « رشاد » حتى فقد اتزانها ، ولم يعد يستطيع البقاء
 في الدار ساعة ، فهو يهيم على وجهه طول يومه ، ولا يلم بالدار
 إلا لكي يتسقط الأخبار .

وفي هذه اللحظة ارتفع صوت الزوجة يدوي ويزلزل
 الأركان ، فاندفع « رشاد » يضرب رأسه بجمع يده ، وهو
 يردد متحسرج الصوت :

سأجن بلا ريب . . . سأجن . . . لا . . . لا صبر لى .
وانقتل من باب الشقة يتوائب على الدرج ، كأنه فريسة
يتعقبها الصائد .

ومثّل « بليغ » وسط الحجرة ذاهل اللب ، بهم بأن يزابل
الدار من فوره ، لينجو بنفسه من هذه الكربة المحيطة به ،
فوقع بصره على الحقيبة ، وهى على قيد خطوات منه ،
منتفخة بالهدايا ، تكاد تتميز غيظاً . . . فعن له أن يتريث
بعض الوقت ، لعل الغمة تنزاح ، وإذا هو يسمع الزوجة
صارخة تقول :

سأموت . . . سأموت لا محالة .

وألقى « بليغ » يده تأخذ بمقبض الحقيبة ، وقدميه ترجان
به نحو الباب ، فإذا هو حيال « الرخوة » تنظر إليه بعين
زائغة ، وتقول :

لقد ترك « رشاد أفندى » البيت وهو أقرب إلى الجنون
منه إلى العقل ، وليس هنا إلا السيدات ، والداية تطالبنا
بأشياء مهمة . . . فما العمل ؟ ما العمل ؟

وبرزت الداية تتلوى وتتخلج ، وأكداس لحمها الحبيس

في تلك الخرققة القصيرة البيضاء التي تسمى ثوباً - تحاول أن تبص من جهات شتى تعلن تلك البضاعة الرخيصة الشوهاء . وتدانن من « بليغ » مرفوعة الهامة ، مشمرة الكمين ، كأنما هي على وشك الدخول في حلقة للمصارعة ، وانبرت تعدد له في صوت غليظ مهيب ما هي في حاجة إليه من معدات ، وختمت حديثها تقول :

يجب إحضار هذه الأشياء الساعة .

وسرعان ما أجاب « بليغ » وهو يحدق في ذراعها العارية الضخمة بعصلاتها المفتولة :

ستجدين كل ما تطلبين حاضراً في لحظات .

وركض يطلب الباب ، وبعد قليل عاد يحمل حزمة كبيرة تحتوي على زجاجات ولفائف ، وما أدرك الشقة حتى كاد يسقط من الإعياء . وانسرح به التفكير في شأنه ، وجعل يراجع نفسه في ضجر ، ولكنه لم يلبث أن عدل قامته ، وتنفخ في وقفته . أليس حسبه أنه أرضى ضميره ، وأنه نهض بما تقضى به المروءة في ساعة الشدة ؟ . . .

ودخل الردهة ، فامتدت إليه تلك الذراع الضخمة ذات

العضلات المفتولة ، وتناولت منه الحزمة على عجل ، وتوارت بها في إحدى الحجر ، ولم تكذب تغيب فيها حتى برزت « الرخوة » تنساب في مشيتها انسياب الزواحف ، وقالت في صوت مستضعف واهن كأنها تسلم الروح :
هناك زائر في حجرة الضيوف .

وأخذت تدفع به ما وسعها أن تدفع . . . وكان الزائر أحد الجيران ممن سمعوا بالخبر ، فجاء يستخبر ويهنيء ، فاستبشر به « بليغ » وظن أنه منتفع به في هذه الساعة العصبية ، بيد أن الزائر ما إن حيا حتى انصرف ، وهو يرجو للأسرة سلامة وعافية .

واندفع سيل الزوار ، و « بليغ » لا يودع واحداً منهم حتى يستقبل آخر ، وأحس بأنه ذلق اللسان مستفيض البيان في وصف الحال ، وهو الذي لم يتوضح له من شخصية « البطلة » إلا صوت كصفارة القطار المكبوتة . . . يطلب النجدة ويعلن الشكوى !

وساد البيت هرج ومرج ، فالأقدام غادية رائحة ، والأصوات صاحبة محتدة ، وتصايح الاستغاثة يتواصل من

حجرة « البطله » حيناً يشتد وحيناً يضعف . واستيقظ البيت كله يقظة كهربية أحس « بليغ » أنه قد أصبح قطبها العتيد ...
 وخالطه زهو واعتزاز ، فراح يصدر الأوامر والنواهي ، ويلوح بيديه لمن هنا وهناك ، ويتناول برأسه في سطوة وتأمر .

وتقدمت منه اللداية البادنة بذراعها الضخمة وعضلها المفتولة ، وقد وضعت يديها في خاصرتيها تقول :

الحالة شديدة ... لا بد لي من مساعدك يشاركني في عملي ... على بطيب .

ولم يستطع « بليغ » أن يجيبها بحرف ...
 من أين له بالطبيب ، وهو في هذه البقعة غريب لم تطأها قدمه قبل اليوم ؟ وأراد أن يعبر للداية عما يجيش في خاطره ، ولكنها أسرعت تدفع إليه ورقة وهي تقول :

دونك أسماء بعض الأطباء الذين أستطيع التعويل عليهم في هذه الحالة ... استدع لي أحدهم من فورك ... لا تنس أن في يدك مصير روحين بشريين ، وأنت عنهما مسئول .

وأخذ « بليغ » الورقة يهرول بها خارج الدار ، وكلمة اللداية تناوش سمعه ، فإذا يصنع وقد وكلت إليه الأقدار مصير

*What for?
 Did it exist before the
 birth?*

روحين من بني الإنسان يعانيان الكرب والضيق ؟

وما إن لمح سيارة. أجرة في طقريه حتى استوقفها ، فأقلته
تقطع به المسالك في جيئة وذهوب ، لا يهبط منها هنية حتى
يعود إليها لتواصل السير ، فمرة يعلم أن الطبيب في زيارة
خارجية ، ومرة يخبره الطبيب الثاني بأن بين يديه مرضاه
لا يستطيع أن يتخلى عنهم ويمضى معه ، ومرة يجد الطبيب
الثالث قد نام نومة القيلولة وليس إلى إيقاظه من سبيل . . .
وبعد لأي عاد أدراجه إلى الدار بطبيب لم يكن اسمه مدرجاً
في القائمة ، ولكن هداه إليه سائق السيارة الحيرى بين عيادات
الأطباء ذات اليمين وذات الشمال .

وزاول الطبيب عمله في نشطة واهتمام ، فبدأ في مسيدعته
البيضاء الأنيقة وقفازه الأحمر المطاط ، وقلنسوته الناصعة تنحرف
على فوده في تفنن ، فتبرز خصلة من شعره الموج ملتمة
على الجبين .

وأخذت الحمية من « بليغ » كل مأخذ ، فهو ذاهب
آيب لا يقر له قرار ، يستقبل الوافدين من الجيران يستنبئونهم ،
ويلقى بأوامره إلى « الرخوة » في تخشن ، ويتلقى الأوامر من

الذراع المفتولة العضل في طوع ، ويستمع إلى صاحب
القلنسوة الناصعة معجباً بالخصلة اللامعة من شعره المواج ،
وهو فيما بين ذلك على الدرج صاعد هابط يقضى مطالب
الدار .

وبغته رن في حجرة الوالدة صياح حادّ . . . إنه الوليد
المرتقب يعلن قدومه السعيد بهذا اللحن الرنان . . . قطعة من
اللحم لا ترن بضعة أرتال تقيم الدنيا وتقعدها أياماً وليالي
معدودات !

وأحسن « بليغ » بهزة من الاهتياج تنتظم أوصاله . وأهل
الدار ممن يعرف ومن لا يعرف يقبلون عليه يطارحونه التهانى في
بشر وابتهاج ، حتى إن « الرخوة » وهى في نشوة سرورها
أخذت به تحتضنه وتطبع على خديه قبلتين حافلتين . أما
صاحبة الذراع المفتولة العضل فقد توالى ثرثرتها في تبيان
ما قامت به من أعمال البطولة في الموقف العسر ، حتى
استطاعت أن تستنقذ الطفل وأمه من برائن موت وشيك . . .
وبعد هنيهة أهل صاحب القلنسوة الناصعة المائلة على الفود ،
وبين يديه الوليد تكتنفه اللفائف ، فلا يرى منه إلا عينان

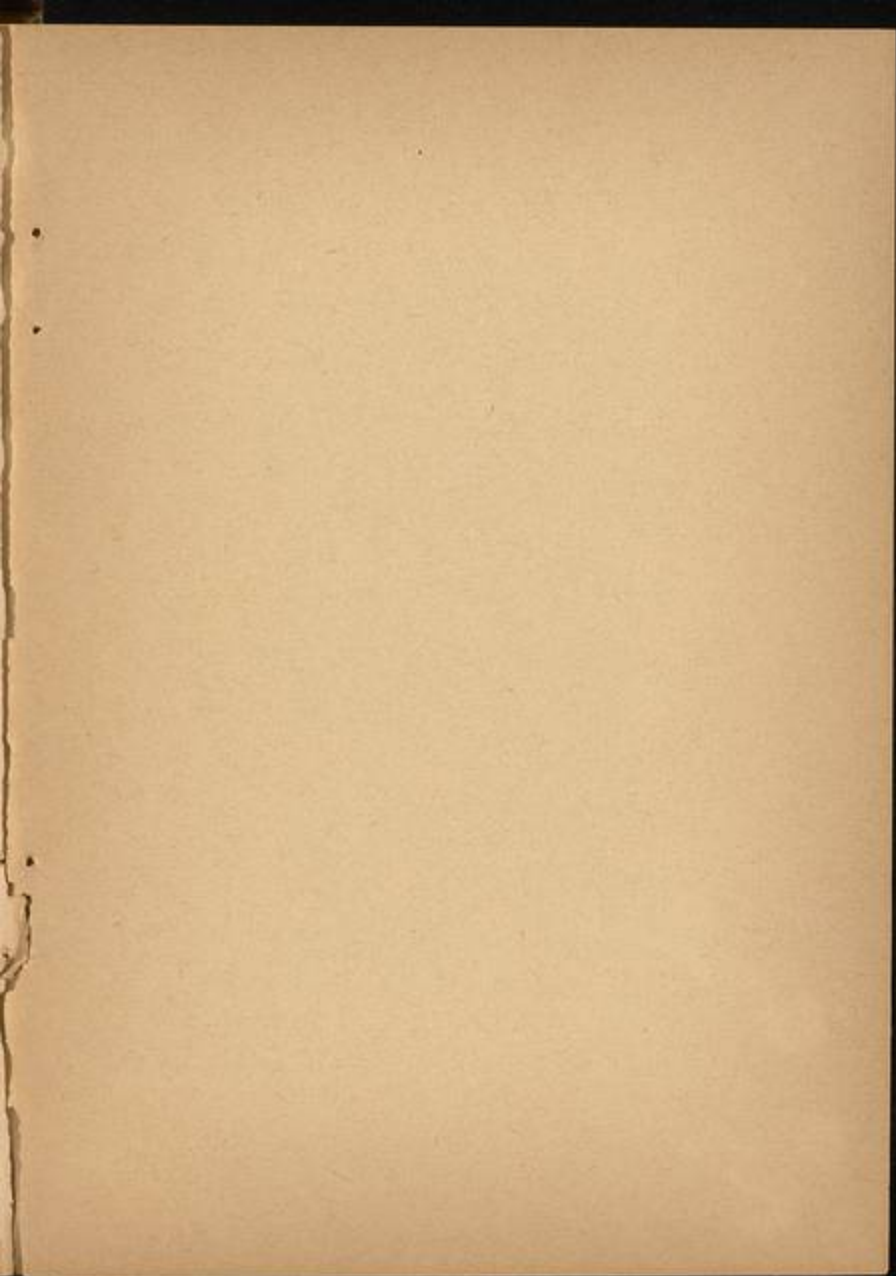
تبرقان ، وشدق لا يهدأ له صراخ .

وألقى الطبيب بالليفة الصاخبة إلى « بليغ » ، فتناولها منه حائراً يعرفه الارتباك ، وطفق يدور بها ولا يفتأ يدور .
وخفت وطأة الضجيج ، وانصرف الطبيب ، فصاحبه « بليغ » حتى باب الدار ، ودس في يده ورقات مالية يكرم بها وفادته ، ويحسن جزاءه .

ولما فرغ « بليغ » من توديع الطبيب عاد صاعداً إلى الشقة ، فوجد الصمت يغشاها ، فدلف إلى حجرة الزوار ، ونظر في ساعته ، فإذا هي قد بلغت من دورتها الغاية
الوقت إذن منتصف الليل وشعر بأن أوصاله تتخاذل ، فاسترخى على مقعده ، فأسرعت إلى فه تناؤبة مجلجلة زلزلت كيانه ، فقام إلى متكأ فسيح ، وما عثم أن تهالك عليه ، وغاب في سبات عميق .

وبعد حين أحس « بليغ » بأن يدين تهبانه في إلحاح ، فنهض برأسه متفزعاً تختلج عيناه ، فطالعه طيف إنسان يتلوى ويتصايح أمامه تصايح المشعوذين ، وهو يقول :
هنتنى يا صديقى ... قدومك خير ... لقد صار لى غلام !

فاجتهد « بليغ » أن يفتح عينيه ، وهو يمسح لعابه المتسائل
على جانبي فمه ، وهمهم في صوت أبح :
مبارك يا سيدي . . . مبارك !
وسرعان ما تهاوى على المتكأ ، وقد علا غطيظه ، كأنه
خوار ثور ذبيح .



۲۱

— أنت استدعيتني يا أماء؟

— نعم يا « سلام » استدعيتك ، فهلا حزرْتِ لماذا؟

فابتسمت « سلام » ابتسامة استخفاف ، وقالت :

لا أعرف قط . . .

— ولكنني أوكد لك أنك تعرفين . ويسوءني منك هذا

التجاهل المصحوب بالازدراء . . . لو كنت مكانك لما وسعتني

هذه الدنيا بأكملها . ولكنك الآن على أحسن زينة وأزهي

ملبس ، أستعد لمقابلة خاطبي الجميل .

— خاطبي ! .

— لا تثيري غضبي يا « سلام » . اذهبي واخلمي ملابس

الركوب . إنها ملابس زرية لا تليق لمثل هذه المناسبة . اذهبي

ورتي شعرك وزيني نفسك .

— ولكني ذاهبة كما تعلمين لأقوم بتزيتي اليومية على ظهر

فرسي .

— ألا يمكنك أن تتركي نزهتك يوماً واحداً — يوم عودة
خاطبك من أوروبا بعد غيبة ستة أعوام !

فلمعت عينا « سلام » بريق الغضب ، وقالت وهي
تضرب قدمها بعصاها الصغيرة :

لقد كررت على مسمعك يا أمي أنني لا أعرفُ لى خاطباً .
— تعالى ، تعالى ، اجلسي بجانبى لحظة . لحظة وجيزة .

تعالى يا حبيبتي .

وجلست « سلام » صامتة بجوار أمها ، وروح الثورة
ما زالت متأججةً في صدرها ، فاحتضنتها أمها وقبلتها ، ثم
قالت لها وهي تحاول الابتسام :

أريد أن نتفاهمَ يا حبيبتي . هل التفاهم حرام ؟ أتشكين
في حبي لك يا « سلام » ورغبتى في إسعادك ؟

— كلا . . .

— فإذا كنتُ قد اخترتُ « شوقي » زوجاً لك فلاأنتي
وجدته أفضلَ شخصٍ يليقُ بك . إنه شابٌ غنيٌّ ذكيٌّ
حائزٌ لأرفع الشهادات . ألا تعلمين أن فتيات كثيرات يتقاتلنَ
عليه ، وينتظرنَ عودته بفارغ صبر ، لينصبن له شباكهن ؟ ..

— فليأكلوه . . . !

— لماذا نتركه لمن؟ لماذا؟ وهل نجد أحسن منه؟

— ومن قال لك إننى أبحث عن زوج؟

فنظرتُ إليها أمها نظرة جزع وألم ، وأخذتُ يدها وشدتُ

عليها فى تأثر . وقالت فى صوت مخنوق :

لم هذا العنادُ يا «سلام»؟ وإلى متى تحيينَ هذه
الحياة المملة . بعيدة عن المجتمعات ، بعيدةً عن وسائل
البهجة والمسرة؟ أتريدين تحطم قلب أمك التى لم يبقَ لها
فى الدنيا سواك؟ أليس أسمى الوحيدُ فى الحياة أن أراك مع
زوجك وأطفالك سعيدة هانئة البال؟ . . . لماذا تريدن أن
تحرمينى هذه الأمنية يا ابنتى؟

ورفعت يدَ ابنتها إلى فمها ، وقبلتها قبلة حنو ورجاء ،

واستأنفت قولها :

لقد تقدّم لك أناس كثيرون من أشرف رجال البلد
وأرفعهم . فرفضتهم جميعاً . رفضتهم بلا سبب . فلم ذلك؟
وأخيراً يعود «شوقى» قريبك وهو من لحمك ومن دمك ،
وقد نشأ وتربى معك فى بيت واحد . أيعودُ بعد غيبة طويلة

فيجد منك الرفض والإهمال؟

وتأثرت «سلام» بمنظر أمها فاحتضنتها وقبلتها ، وقالت لها في رفق :

ولكنك يا أمي تتكلمين في أشياء سابقة لأوانها . فهل خطبتني «شوقي» صريحا؟

— صريحا؟ . . . كلا . ولكن الناس يعلمون أنه خاطبك وكلنا نتحدث بذلك منذ كان بيننا — قبل أن يسافر إلى أوروبا .

فتجهم وجه «سلام» بغتة ولم تجب . وخشيت أمها أن تسيء إليها من حيث لا تدري . فلاطفها وقالت لها :

— لا يسؤك كلامي يا حبيبتى .

وقامت «سلام» تريد الخروج ، فقالت لها أمها :

— لا تطيلي نزهتك يا حبيبتى . لا تنسى أنه سيحضر قبل الغداء . . . عليك أن تساعدني في ترتيب المائدة . أما أنا فذاهبة إلى المطبخ لعمل الشراكسية .

• • •

عاد «شوقي» إلى الدار بعد غيبةٍ طويلةٍ قضاهَا في

ربوع أوربا ، يتعلم ويستمتع في مغانيها . عاد إلى دار الأسرة
القديمة حيث قضى ريعان طفولته وشبابه . عاد إليها ليحيا
حياة الاستقرار والعمل المنتج .

نزل من السيارة ، ووقف أمام الباب يحدق فيه ، ذلك
الباب الضخم الهرم المحلى بالنقوش العتيقة . لن ينسى مطلقاً
يوم خرج منه منذ ستة أعوام يطلب المجد ، وكأنه منتش
بخمر لذيدة تلهب دمه .

..... لم يحدث تغيير يذكر . كل شيء على حاله .
فالبوباب كما هو مشرق بابتسامته ، يحيه في لغته المألوفة .
والبستاني يهرع إليه ويقبل يده ، ويقدم له زهر العتر .
والحديقة على حالها مهملة بأشجارها الكثيفة وطرقاتها غير
الممهدة . . . وأخيراً حجرته . أجل حجرته ، كما كانت
لم يتغير فيها شيء ، كأنه تركها بالأمس . إن « تسفير »
العجوز لم يفتها إعداد القلة النظيفة المبخرة والمنشفة الزاهرة
و . . . وطغت عليه ذكريات الماضي الجميل ، فنظر حوله
في غبطة ، وقال :

كل شيء على حاله يا « تسفير » فما أسعدني بكم !

وأخذ يتحدث إلى « تسفير » يسألها عن المنزل وأهله .
وما جرى فيه أثناء غيابه . سألتها عن أشخاص كثيرين وأمور
شتى . فنظرت إليه « تسفير » نظرة استغراب ، وقالت :

ولكنك لم تسألني عنها . . .

— من تقصدين ؟ .

— هي يا سيدى . هي صديقتك الصغيرة .

— من ؟

— « سلام » يا سيدى !

— أوه « سلام » ! كيف هي ؟ أما زالت نحيفة

ضئيلة كالسمكة المقددة ؟ !

— السمكة المقددة . . . إنها ملء العين والحاظر . سمن

على غسل يا سيدى !

— أنت تبالغين . ولكن خبرينى : أما زالت ترتدى المييدة

الزرقاء المبرقشة برشاش الحبر ؟ !

— ما هذا الكلام يا سيدى ؟ إنك تتحدث عن الصغيرة

« سلام » التى لم تكن تبلغ الرابعة عشرة بعد . أما الآن فهى

غيرها بالأمس . إنها ترتدى الثياب على أحدث زى . وتزين

نفسها كعروس ليلة زفافها . . .

— وأين هي ؟

— خرجت راكبةً فرسها لتقضى نزهتها اليومية .

— راكبة فرسها ؟ . . . أمر مدهش !

— هتاك يا سيدى ! ليس هذا كل شيء . إنها تعزفُ

على البيان كأمر العازفات . وتتكلم الفرنسية طلاقة اللسان .

وتقرأ الصحف . وتفهم كل شيء .

وُسمع في تلك اللحظة صهيلُ فرس ووقع حوافرها على

أرض الحديد الصلبة . فهرعت « تسفيرُ » إلى النافذة ثم

صاحت مهللة :

إنها هي !

وأطل « شوقى » من النافذة ، وما كادت عيناه تقع على

« سلام » حتى صاح مدهوشاً :

أمكن هذا ؟

ونزل « شوقى » ليستقبلها ، فرآها تترجلُ بالقرب من

الباب ، فتقدم نحوها ومدّ لها يده ، وهو يقول :

هالو « سلام » . . . كيف حالك ؟

فأجابته في لهجة عادية بلا حماس :
الحمد لله . وأنت ؟

ودهش « شوقي » من لهجتها ، ولكن راعته نبرات صوتها .
وأخذ يتأملها طويلاً ، فإذا هي في قوام ممشوق ، وحركات
رشيقة ، وشائلا حلوة . فيها طراوة وجاذبية على الرغم مما يبدو
عليها من إهمال .

وناولت « سلام » اللجام للسائس ، وأصدرت له أوامرها .
ثم سارت متجهةً ناحية السلم . و« شوقي » سائر بجانبها
صامتاً ، وقد أحس على الفور شيئاً يحيره ويتعبه . وأخيراً تكلم
فقال :

يخيل لي أن كل شيء على حاله في هذا المنزل لم يتغير ،
سوى أمر واحد . . .

وظهرت السيدة « امثال » والدة « سلام » ، وكانت على
أحسن هيئة . مرتدية ثوباً منفوشاً منشي كأنه الورق المقوى .
وشعرها يلعب من تأثير المكواة الحامية . تقدمت نحو « شوقي »
في تهلل ، وبسطت ذراعها وقالت في صوت مهدهج :
أهلاً وسهلاً بابننا العزيز . أهلاً وسهلاً بابننا الحبيب .

إن يومَ عودتك ليومَ عيدٍ لنا عظيم !

وطوقته بذراعيها وقبلت رأسه . وسمعته يقول :

إن سروري برؤيتكم لا يُقدَّر .

ومسحت السيدة « امثال » عينها الدامعتين ، وقالت :

لقد كنت أسألُ عنك دائماً ، ولا يهدأ لي بالٌ حتى

أطمئن عليك .

وتأملته طويلاً وقالت :

ما شاء الله . ما شاء الله ! حمى الله لك شبابك يا ابني !

ووقع بصرها على « سلام » فاكفهرَ وجهها ، وقالت لها

في لهجة نائرة مكتومة :

أبهذه الهيئة تقابلين زوّارك ؟

ثم التفتت إلى « شوقي » وقالت :

لم تقصد « سلام » أن تظهرَ أمامك هكذا . لقد جمحت

بها الفرسُ ووصلتها فتأخرت في العودة على غير رغبة منها ،

فلم تستطع أن تغير ملبسها . . .

فقال « سلام » في هدوء وهي تداعبُ عصاها :

كلا يا أمي ، لم تجمع بي الفرس ولم تضلني . . .

فنظرت إليها أمها نظرة ملتبهة ولم تتكلم ، وقال « شوقى »
 وهو يبتسم :
 إن ركوب الجياد رياضةٌ جميلة ، وإنى أهواها .

• • •

اختفت « سلام » بعد هذه المقابلة ، ولم تظهر إلا وقت
 الغداء . وكانت ترتدى ثوباً غايةً فى السذاجة ، ولم
 تعن بزينتها ، فنارت ثائرة أمها . ولكنها لم تستطع أن تتكلم .
 والتفت « شوقى » نحو « سلام » وقال فى لهجة مخلصنة :
 لقد أحسنت اختيارَ هذا الثوب يا « سلام » . إن لونه
 وتفصيله يشهدان بدوقٍ سليم .

فأجابته فى لهجة مؤدبة عليها مسحة الجفاء :
 أشكرك .

وقالت « تسفير » العجوز :
 إنه من تفصيلها يا سيدى . ألا تعلم أن « سلام » خياطة
 ماهرة ؟

فقال :

لقد كانت وهى صغيرة تجيدُ تفصيلَ المعاطف

لقطتها . وطالما خاطت لى أزراراً ساقطة ، ورتقت فتوقاً فى
ملابسى .

ونظر إليها ، فابتسمت « سلام » ابتسامةً رسميةً . وقالت
« تسفير » :

إنها كانت تفصلُ وتخيظُ جميعَ ميدعاتها .

فقال « شوقى » :

هذا صحيح . وعلى ذكر الميّدعات أذكرُ كيف أنى
دلفتُ مرةً الخبرَ على ميّدعة فألتفتها . . . ألا تذكرين
ذلك يا « سلام » ؟

فقالت فى لهجتها الرسمية :

لا أذكر . . .

— كان ذلك قبلَ سفرى ببضعة أيام . عندما جئت
تطلبين مساعدتى فى حل بعض المسائل الحسائية .

فلم تعجب . ثم حولت رأسها ناحية الباب ، وقالت للخادمة :
متى تحضرين الطعام يا « سيدة » ؟

• • •

بدأ الأكل وانتهى ، و « سلام » لم تفتحَ فيها إلا لتجيب

بنعم أو لا ، أو غير ذلك من الكلمات الواجبة . وكان كل ذلك مصحوباً بابتسامة معتصبة ، أو إشارة مقتضبة . وكانت أمها تغلى كالمرجل . وطالما رمقتها بنظرة حادة أو عتاب مرّ . أما « تسفير » فقد باءت بإخفاق مُروّع في محاولتها لإضحاك « سلام » أو تحريضها على الكلام . وقد أنقذ « شوقي » الموقفَ بحديثه المسلي عن سفره وحياته في أوروبا ، وما اعتزم أن يفعله الآن .

وترك الجُمعُ حجرة المائدة . وذهب « شوقي » إلى الشرفة ليدخن لفافة ، وانتحى ناحيةً في ركن بعيد . وأخذ يفكرُ فيما مر عليه الساعة من مشاهد ، وهو حائر لا يستطيعُ لها تفسيراً . وفيما كان على هذه الحال رأى « سلام » تدخلُ الشرفة ، وما كادت عيناها تقعُ عليه حتى توقفت عن المسير وتأهبت للعودة وهي تقول :

لا مؤاخذه . . .

وسار إليها « شوقي » ورافقها إلى الشرفة ، وقال لها في

عتاب :

أبزعجك مرآى إلى هذا الحد ؟

— أنت بلا شك مُتَعَب ، تطلبُ الخلوَةَ لتستريح .
— الحمدُ لله ! هذه أولُ جملةٍ طويلةٍ أسمعُها منك منذ

حضورى .

— ماذا تعنى ؟

— أتذكرين كيف كانت « سلام » الصغيرةُ تملأُ
المنزلَ كله بكلامها وضجيجها ؟

فابتسمت في إهمال ، وقالت :

إن « سلام » الصغيرة قد ماتت !

— ولكنها تعودُ إلينا أبهى وأعظمَ مما كانت .

وأمسك يديها يداعبها ، فجذبها منه وخرجت ،

و « شوقى » ينظر إليها في حيرة .

• • •

ومضى أسبوعان و « سلام » لم تغيرَ مسلكها نحو

« شوقى » كما أنها لم تبدل شيئاً من حياتها التي اعتادت أن

تحياها . فلم تكن تطيلُ وقوفها معه . بل تقتصرُ على السلام

وتبادل الكلمات القليلة . وكان يحس أنها تتجنبُ مرآه بقدر

المستطاع ، مع محافظتها على المظاهر في أدب ولباقة . ولم

تستطع أمها بعتها تارةً وتوبيخها تارةً أخرى أن تحملها على تغيير مسلكها ، فتركها وشأنها خشيةً أن تسوء العاقبة .

وعجب « شوقى » من أمر نفسه . إن اهتمامه بهذه الفتاة يزدادُ يوماً بعد يوم . لقد عرف مواعيدها فكان يراقبها ويستمتع بمراها وبحديثها القصير المبتور كلما وجد إلى ذلك سبيلاً . فهو بجوار الباب كلما خرجت للركوب وكلما عادت . وهو تحت نافذة حجرتها يصغى لأنغام البيان التي تعزفها في شوق وحنين . وهو في الحديقة وقت نزولها إليها عصراً لتجمع الزهور ، يسيرُ جيئةً وذهاباً في الممشى الكبير وفي يده كتاب مطبق ، ويبادلها التحية من بعيد أو من قريب . وكان أحب الأوقات إليه أن يذهب إلى محباً يطل على شرفة حجرتها ، حيث كانت تتمدد على مقعدها الطويل بعد خروجها من الحمام تجفف في الشمس شعرها الأسود الطويل ، وقدمها العاريتان المشربتان بحمرة فاتنة تلمعان في الضوء القوي . فكان يعجبه هذا المنظر الرائع . ويشتهى أن يشبع عينيه منه مدى العمر .

كانت « سلام » تعيش في مملكةٍ خاصة بها وحدها : هي

نفسها لا أقاربَ ولا أصدقاءَ تزورهم أو يزورونها . أطيبُ الأشياءِ إليها نزهة على ظهرِ فرسها في الأماكنِ الطلقةِ الفسيحةِ حقولاً كانت أو رمالاً ، أو كتابَ تقضى الساعاتَ تستمع إليه صامتة . أو أمامَ « البيان » تفضي إليه ويفضي إليها بشكايات طوال . . . هذا العالمُ الذي تعيش فيه « سلام » والذي يتراءى للناس ضيقاً مملولاً أخذ ينكشفُ « لشوقي » عن دنيا واسعة تزخرُ بالكنوز ، ولكنها ظلت دنيا بعيدة المنال عنه .

وكرهَ « شوقي » هذا الغموضَ الغريب القائم بينه وبين « سلام » . فاستولتُ عليه فكرةٌ جريئةٌ اعتزم تنفيذها مهما يكلفه الأمر .

نزل يوماً إلى الحديقةِ وكنَّ للفتاة ، وبعد قليل جاءتُ وأخذت تقطفُ الزهور ، وكان المكان خالياً يغمره الصمت . وخرج « شوقي » من مخبئه وانسلَّ إليها من الخلف ، فأمسك رأسها وأداره ناحيته بسرعة وطبع على فمها قبلةً عميقةً حارة . ثم تركها . . . فوقفت الفتاة هنيئة أمامه مصعوقة ، ثم احمرَّت بغيتهً وجهها واحتقنت عينها . وقالت وهي ترتعش :

أتجرؤ على ذلك ؟ . . .

وتهدج صوتها واحتبس ، ثم رآها ترفع يدها في وجهه ،
ولكنها أنزلتها ، واستدارت بسرعة وجرت صوب المنزل . ووقف
« شوقى » يراقبها حتى اختفت . لقد رأى عينها تلمعان بوميض
غريب لم يره من قبل . وجرى خلفها حتى وصل إلى حجرتها
فوقف بجوار الباب يتسمع . فوجدها قد ألقَتْ بنفسها على
السريـر واندفعت تبكى في شدة ، فصبر عليها حتى انتهت
من البكاء . ثم دخل الحجرة في خطوات بطيئة فراها جالسة
على السريـر تجفّف بقايا دموعها . وما إن وقع بصرها عليه
حتى أشارت له إلى الباب ، وقالت في حدة :

اخرج !

فتقدم نحوها وقال في هدوء :

ألا أستطيع أن أعلم سبب هذا الخصام ؟
فصاحت :

— خصام ! أى خصام ؟

— خصام أو جفاء . سمّيه كما تشائين !

وجلس على مقعد بالقرب من السريـر . وقال في حنو

وإخلاص ، وهو يحدّق فيها تحديقاً عميقاً :

ألم تدركي شيئاً من أمرى يا «سلام» . ألم تكتشفي شيئاً
 مما يضطرمُّ في قلبي نحوك؟

فلم تجب ، وكانت تنظرُ أمامها ولا تتحرك ، فقال :
 لماذا لا تجيبين؟

وأراد أن ينالَ يدَها فأبعدها عنه ، وهي تقول في
 إصرار :

دَعْنِي وَاخْرُج . قَلْتُ لَكَ دَعْنِي وَاخْرُج !

فصمت قليلاً وهو متعجبٌ متحير ، ثم قال :

ألى هذا الحدِّ تكرهينى يا «سلام» ؟

— أجل أكرهك ! أكرهك . . . !

— ولماذا تكرهينى ؟

— لأنك أنانى . قلبك من حَجَرٍ . . . أتذكرُ ليلةَ سفرك؟

— أذكرها كحلم بعيد .

— أما أنا فأذكر حوادثها كأنها حدثت أمس . إن

مشاهداتها محفورةٌ في ذاكرتى .

وصمتت وقتاً تستعيدُ ذكريات الماضى . ثم قالت في

لهجة أفل حدةً من ذى قبل :

... كنت مشغولاً بترتيب أشيائك ، تروح وتجيء وأنت تصفر مغتبطاً ، وكنت أتبعك صامتةً وأنظرُ إليك تحسر . فالتفت نحوي بغتةً وقلت في حدة : « اجلسي هنا ولا تتبعيني » . فجلست وأنا لا أفهم سبب حدثك ، وأحاسب نفسي فيما يكون قد بدر مني فكان سبباً في غضبك . كانت عيناى لا تفارقانك وأنت تروح وتجيء مشغولاً دائماً بأشياءك وحقائبك ، أسمع صفيرك ذا الروى الواحد وأنا صامتة . وطالت جلستي ، وأوشكت أن تقفل الحقيب ، فشعرتُ بغتةً بدافع قوى يدفعني نحوك فقفزت وتعلقت بك ، وقلت لك في سداجة بريئة : « لماذا لا تأخذنى معك ! » فنظرت إلى فى سخرية وغيظ ، ثم دفعتنى بيدك ، وخرجت من الحجرة كالزوبعة . . . فى تلك اللحظة شعرت أول مرة بأن غشاوة كانت تغطى عيني وأنها أخذت تنقشع . فخرجت أجرى إلى حجرة الفراش وجلست القرفصاء فى ركن من أركانها ، ولم يخفى الظلام ، بل أنستُ به . كنتُ فى حاجة إلى الوحدة والتفكير . وأخذت أعرض حياتى معك على ضوء جديد فوجدتها غريبة . غريبة جداً ، كنت أعتقد أننى لا أستطيع

أن أعيش بدونك . كنت أنزلُ إلى الحديقة أنتظرُ عودتك من
 المدرسة ، أعد الدقائقَ واللحظات . فما أكادُ أملكَ حتى
 أهرعَ إليك متهلة باشة فتستقبلني في جفاء . وتلقى عليَّ
 تحيتك كما يلقي السيدُ تحيته على خادمه . ثم تعطيني محفظتك
 المكتظة بالكتب فأحملها لك راضية إلى حجرتك وكنت
 أحب أن أحادثك لأسليك فتصدني وتشعرنى بأن حديثي
 سخيفٌ لا يليق أن يسمعه شخص مثلك . وإذا حدثتني
 فحديثك دائماً عن شخصك وعن مشروعاتك وعن النجاح الذي
 ينتظرك . . . دائماً عن نفسك دائماً وكنتُ أصغى
 إليك في اهتمام وشغف ولا أملُ حديثك . وأتصورك وقد
 غدوتَ عظيماً من العظماء كقائدٍ منتصر أو كملك كبير
 ينظرُ إليك الناسُ نظرة الخشوع والإكبار ، وأنظرُ إليك
 أنا نظرة العبادَة . وكنتُ أنتظرُ منك بالرغم من كل ذلك
 شيئاً ، شيئاً واحداً ، كلمةً أو إشارةً أو ابتسامةً تحمل المعنى الذي
 أطمع فيه ولكن لم يلفظُ لسانك بتلك الكلمة ولم تبدُ
 منك هذه والإشارة . . . في يوم رحيلك ذهبتُ إلى البهو
 مبكرةً ، واختبأت خلف إحدى الستائر . وانتظرتُ هناك

طويلاً وأنا أرتجف وقلبي يدق... ورأيتك أخيراً وحولك
 أهلُ المنزل تودّعهم ويودعونك ، وتذكر أسماءهم اسماً اسماً .
 ولم أسمعك تسألُ عني أو على الأقل تبعث إلى بتحيتك .
 وخرجتَ وأنتَ مهتلل الوجه تصفر ذلكَ اللحنَ ذا الرويِّ
 الواحد . وخرج الجمع يتبعونك إلى الحديقة ، وأقفلوا البابَ
 فلم يعد في البهو سوى . فتركت مخبئى وهرولتُ إلى حجرة
 الفراش وحبستُ نفسى فيها طولَ اليوم ، أذرف الدمعَ
 صامتة . . . منذُ ذلكَ اليوم كرهتكَ وكرهتُ « الرجل »
 فى شخصك . لقد كنت وقتئذ صغيرة جاهلة غبية . يحقُّ
 لكَ أن تقولَ ذلكَ . ولكن كان لى قلبٌ ، وكانت لى
 أحلام ، فدستَ ذلكَ القلبَ ، وحطمتَ هذه الأحلام . . .
 أما أنتَ فقد تجمّع فيك كل شىء : ذكاء وعقل وعزيمة .
 ولكن كان يعوزك شىء واحد وهو فى نظرى كل شىء . . .

فهمهم « شوقى » :

. . . ولكن كان ذلكَ فيما مضى . أما اليوم . . .
 — لقد فاتَ الأوان . إن الهاوية التى بيننا سحيقةٌ ،
 سحيقةٌ جداً ، ولا يمكن أن نتخطاها .

وصمتت و « شوقى » ينظرُ إليها ولا يتكلم . وطال
صمتها . وأخيراً قام « شوقى » وتناول يَدَها فى سكون ،
وطبع عليها قبلةً عميقة ، ثم خرج بلا كلام !

• • •

ومضت الأيامُ ولاحظَ الناس على « شوقى » تغيراً
كبيراً . لقد قلَّ كلامه وغازت ابتسامته وكثُر تفكيره ، وآثر
الوحدة فى حجرته أو فى ركن ناءٍ مخنف فى الحديقة ، يقضى
وقته يفكر فى كآبة ، وكان يتجنبَ جهداً إمكانه مقابلة
« سلام » فإذا اضطر إلى لقاءها حياها فى أدب ولم يطل
وقفته . أما هى فقد ازدادت انطواء على نفسها . وكانت
عيناها الواسعتان السوداوان قد أخذتا فى الذبول ، وانطبعت
عليهما آثارُ البكاء ، تنطقان بحيرة وقلق ويأس دفين . . .

• • •

وفى مساء يوم من الأيام كان « شوقى » فى حجرته
يرتبُ أشياءه فى حقائبه تساعدُه « تسفيرُ » العجوز . وكان
يعملُ صامتاً ، والمرأةُ حائرةٌ حزينة . وسمعا « شوقى » تقول :
وإلى أين تسافر يا سيدى ؟

— خارجَ القطر .

— أينَ ؟

— لا أدري !

— ولماذا عدت إلينا إذن ؟

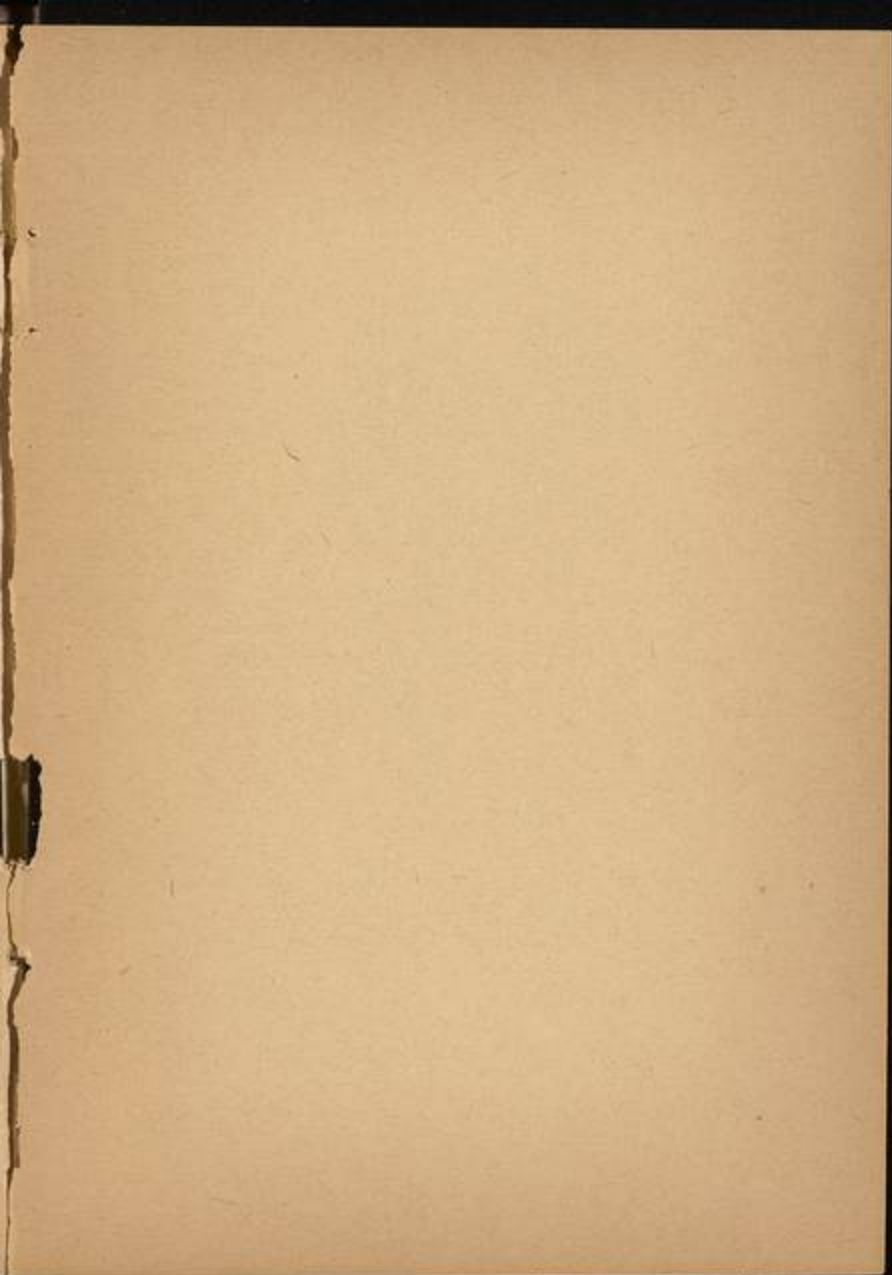
— العلمُ عند الله !

• • •

وفي الصباح المبكر تاهب المنزل لوداع « شوقي » .
 وخرج الفتى إلى البهو وهو يحمل معطفه على يده . كان يسير
 متمهلاً ويحيي مودعيه في وداعة عليها مسحة الكآبة . وقبل
 أن يتخطى الباب وقف والتفت حوله يؤمل أن يرى شخصاً
 معيناً بين الحاضرين ، فلم يجده . ووقع بصره فجأة على
 إحدى الستائر وكانت تهتز ! . . . فأخذ يحدق فيها وقلبه
 يخفق . أهو الهواء يحركها أم هو شيء آخر ؟ . . .
 وطالت وقفته كما طال تحديقه في الستارة ، وقد تابع
 خفقان قلبه . . .

ولكن الستارة سكنت ولم تعد تتحرك . . .

فحول وجهه نحو الباب ، وخرج وهو يوسع الخطأ ! . . .



وقصص أخرى...

كان هذا فيما مضى . . .
وأنا يومئذ في أوج الشباب ، أستقبل من حياتي القصصية
فاتحة تملؤني من زهو واعتزاز . . .
أقبل الصيف يلفحني بأنسامه الحارة . فخليت له وجه
« القاهرة » وفزعت بأنفاسي إلى الثغر ، أستنشي منه أنسام برد
وسلام .

وفي تلك الحقبة كانت « سيدى بشر » جينياً يتخلق ،
فليست هي إلا طريقاً متفرداً تتناثر عليه أبنية متطامنة ،
والبقعة على شاطئ البحر كشبان من الرمال . . .

كنا في المنزل الذي اخترناه هنالك لا يهناً لى مقام . . .
فالعمال طوال النهار جادون في تعبيد « الكورنيش » ، يعالجون
وصل أجزائه بعضها ببعض ، لتصايحهم وصخب معاوهم وآلاتهم
هدير يعلو على هدير الموج ، فالضجة بينهم دائبة تعكر صفو
الهدوء المنشود في المصيف . . .

ولم يكن يعنيني حينئذ إلا أن أفرغ لقصّة مطولة ، أرجو لها صفاء الذهن . وأتمس لها الخلوة من كل شاغل ، حتى أتم تدبيجها على خير ما أريد . . . فضيقت أجوب البقعة ، لعلني أظفر فيها بمعزل عن الضجيج .

ووجدت أخيراً ضالتي المنشودة في مشرب صغير ضائع على مشارف المدينة ، تحسبه منسيّاً من العالم الحى ، فشملتني به فرحة بالغة ، وسرعان ما أصبحت من رواده على تعاقب الأيام .

في هذا المشرب يبرز صاحبه ، وهو رجل رومى يسمى «سقراط» ليس فيه من شخصية سميّه فيلسوف الإغريق العظيم إلا تشابه في السحنة ، إذ كان موفور الدمامة . أما العقل والفظنة والحكمة فلم يكن له منها نصيب . بل لقد كان جهولاً ضيق الأفق ، وكان إلى ذلك غيبياً لا يفهم . لكن لا يبين ، وهو لا يحسن لغة من اللغات يفصح بها عن غرضه ، حتى لغته الأصلية .

فإذا تخلف عن المشرب غلامه ، وتقدم «سقراط» ينوب عنه في تقديم الأشربة ، صعّب التفاهم بينه وبين الرواد ،

فشكوا من خلطه بين الطلبات ، الراغب في قدح الشاي تقدم له القهوة ، وطالب القهوة يزف إليه الزبيب ، والظاهر إلى الزبيب يزداد من ظمأ ولا يرثي له أحد .

وجعل الرواد يتضاءلون يوماً بعد يوم ، فيتنازعي لذلك عاطفتان على طرفي تقيض : ترى أغتبط بما يكتمل للمشرب من صفاء الحلوة ، على حين يسوءني ما يعانيه « سقراط » من كساد . ولعل فيهما استشعرته من إشفاق عليه كنت أخشى أن يغلق المشرب أبوابه ، فأفقد ما وجدته فيه من مثوى هادئ يطيب لي فيه التأليف .

وكان صاحب المشرب لا يكاد يلمحني أدخل ، حتى يهل على بوجهه ، وهو يرمق حقيبة أوراقي في تقدير وتوقير ، ولا يلبث أن يحث غلامه على خدمتي ، وبين الفينة والفينة يمر بمجلسي ، مومئاً بالتحية ، أو منحنياً في ابتسام ، وعيناه أبداً تحدقان فيما بين يدي من أوراق ..

فلما صفر المشرب من الرواد أو كاد ، وأصبحت أنا رائده المواظب الذي لا يتخلف ، رأيت « سقراط » يباليغ في حفاوته بي ما وسعه أن يباليغ . كأنما كان بصنيعه هذا يخشى

أن أفلت أنا الآخر من مشربه .

لقد أخذ الرجل نفسه بأن يرصد مقدمي ، ويسارع إلى
حقيبة أوراقي يحملها عني ، ويشير إلى المنضدة التي أعدها
خاصة بي . . . ويأبى أن يدع لغلامه إحضار ما أطلب من
شراب ، فهو وحده الذي يحضره لي ، ويقربه مني .

وبعد قليل أراه قد عاد إلى يحمل صينية تحفل ببعض
الرقائق والمشهيات من الأطعمة ، يتوسطها كأسان مترعتان ،
وهو يقول ، أو بالأحرى يعني أن يقول :

هل لك يا سيدي في أن تتناول معي كأساً من نبيذ
المفضل ؟ إنه خلاصة تجاربي ، وعصارة ذوقي ، وإني
بالأنبذة لخبير أي خبير .

ولا يكاد يتم جملة حتى يكون قد اتخذ كرسيه حيالي ،
ويمكن في مجلسه مني ، رافعاً الكلفة بينه وبينى ، سابقاً بيده
إلى الصينية يلتهم منها ما يلتهم ، وإلى الكأس يكرع منها
ما يكرع .

فإذا ما أبدت له عذري في الامتناع عن الشراب ، ألح
علىّ في أن أتذوق بعض مختاراته من رقائق الطعام ، ولا يلبث

أن ينحى على الكأس الأخرى يصبها في فمه صبباً .
وتجاوز «سقراط» في تكريمه لى كل حد . . . فقد
تطوع بالتحديث إلى فيما يشغله من شئون الدنيا وهموم الحياة ،
يبغى مؤانستى والترفيه عنى ، ولك أن تتصور موقفى من محدث
لا يفقه من لغة الحوار إلا ألفاظاً شائبة النطق مبتسرة الأحرف ،
يحرك بها شدقيه فى صوت أجش كريبه . . . ويطول به
الحديث العقيم ، دون أن أبادله القول ، فينتبه أخيراً إلى أنى
غير منتبه له ، ويفهم أنى غير فاهم عنه ، فينهض عنى وهو
يعتذر . . . ولكن بعد فوات الأوان !

وفى مجلسه منى مرة ، رآنى مصروفاً إلى أوراقى أطلع
وأعمل القلم ، فرفع رأسه عن صينية شرابه ، ومسح شرابه
المنتفش . وقال فى لكنته المألوفة . وعلى محياه علام حيرة
وفضول :

أنت دائماً مشغول بهذه الأوراق . . . أوراق المحاكم . . .
أليس كذلك ؟

— أى محاكم ؟

— ألسن محامياً ؟

— إلى مؤلف . . .

— مؤلف ؟ . مؤلف ماذا ؟ تقصد أنك محام ... ؟

فابتسمت أقول :

ليس ثمة كبير بين فرق محام ومؤلف . . . كلاهما يعالج

قضايا الناس !

وهز رأسه يفهمني أنه فهم ، وكأنما عز عليه أن يسترسل

في السؤال ، فأظن به الغباوة والجهل .

وأصر « سقراط » دائماً على أنى محام ، محام مجتهد ، دائب

في عمله صبور ، وأنه يكنى لي أوفر احترام وتقدير .

وترادفت الأيام ، واشتد على الحصار من صديقي الرومي .

وكان يغلو في توقيري بوصفي محامياً نشيطاً ، وازدادت حفاوته

في ، فتراجعت على صينيته كتوس الأنبذة وصحاف الرقائق

والمشبهات ، وامتدت جلساته بطيئة خانقة كأنها كابوس حلم مزعج . . .

ويوماً جاء يجلس مني جلسته المعهودة ، وقد انتفخ جيبه

بكتاب . . . فقلت أباسطه :

يبدو لي أنك من عشاق القراءة والاطلاع . . . هذا

جيبك يشهد !

فأهى إلا أن أخرج الكتاب ، فإذا هو عتيق الورق ،
مهلهل الغلاف ، وألقى به على المنضدة ، وهو يقول :
إنه باللغة اليونانية . . .

— أقرأته ؟

— ما شأنى به ؟ . . . إنه لأحد رواد المشرب ، غفل عنه
أمس ، فأنا أنتظر قدومه اليوم لأرده عليه . . .
فامتدت يدي إلى الكتاب أنقل البصر بين صحائفه ،
فظالعتنى فيه صور تمثل بعض الأحداث والشخصيات ، فقال
لى « سقراط » وهو يعقد حاجبيه ويزر عينيه :
كتاب تافه ، لا تلق بالك إليه .

— فى أى موضوع هو ؟

فثل الرجل وقتاً يفتح فكيه المتبيسين ويطبقيهما ، يجاهد
فى الشرح والإفهام . وأخيراً انتهى إلى قوله :
. . . ألم تفهم بعد . . . إنه كتاب « حواديت » !
فرايتنى أصبح متحمساً :

« حواديت » . . . « حواديت » . . . شىء عظيم !

فارتسمت على وجه « سقراط » دهشة صارخة ، وهمهم :

ولم هذا الاهتمام « بالحواديت » ؟

— لأنى أحبها ... اعلم يا صديقى أنى أنا أيضاً أكتب « حواديت ». وهذا شغلى فى أوراقى التى تجدها بين يدى .
فانبرى « سقراط » يوزع نظراته بين أوراقى وبينى ، وهو يتممص شفتيه ، وما عثم أن حدجنى بنظرة اسهان شزراء ، وهو يقول :

لست محاميا إذن ؟

— لقد نفيت لك أى محام . . . وأكدت لك أنى مؤلف ...
اعلم أنى مؤلف « قصص » .
— إذن أنت كاتب « حواديت » ؟
— هذه هى الحقيقة .

فانقلبت شفته السفلى تختلج ، وانسدلت على وجهه
جهامة وقطوب ، وتقلقل فى مقعده ، ثم نهض يلم صحافه
وأكوابه فى الصينية دون تنسيق . . .
وغرب عنى .

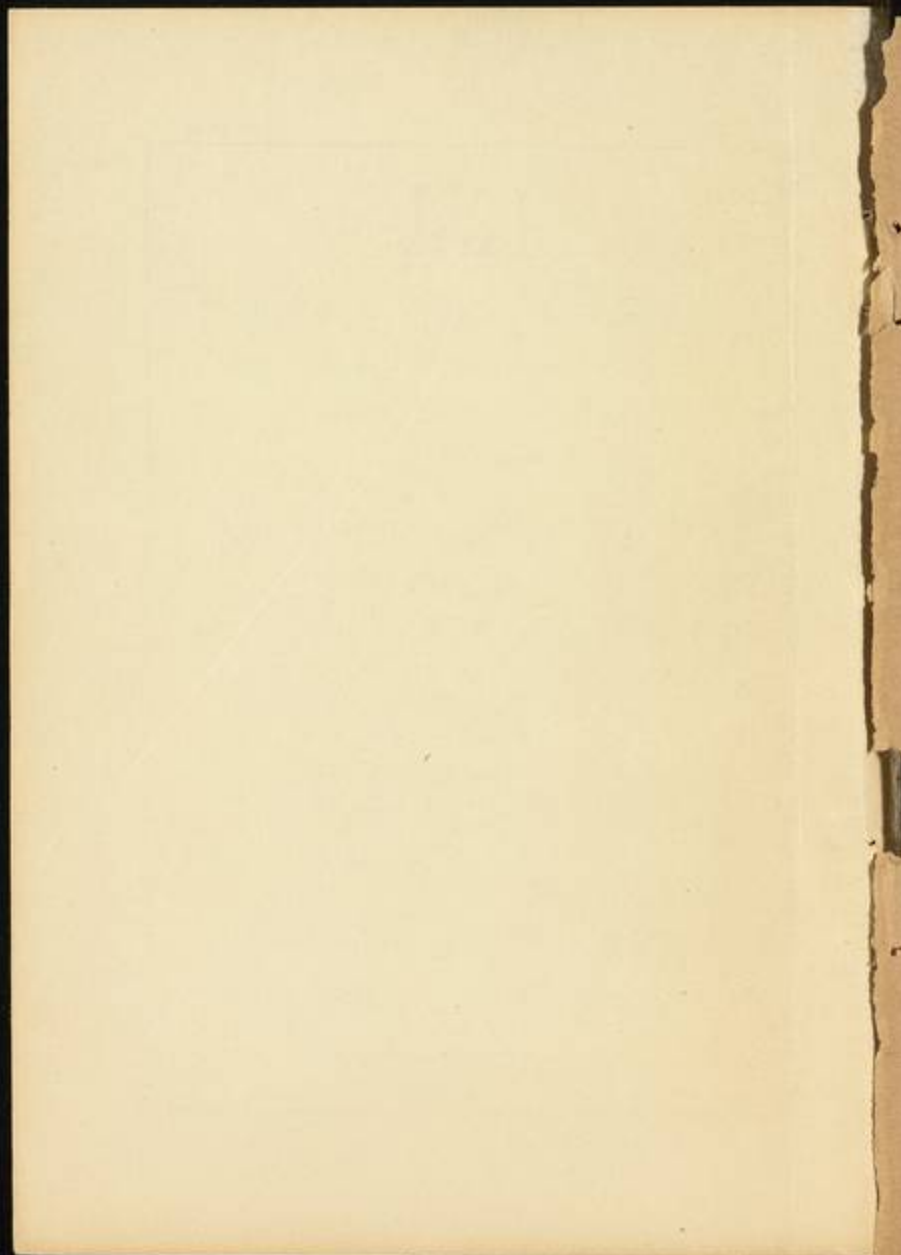
وكان الانقلاب الذى كنت أتمناه . . .

لم يعد « سقراط » يهرع إلى ليستقبلنى ، ولم تعد حقيبة

أوراق تَشْرُفُ بيده تحملها عني ، فإذا قدمت المشرب تشاغل
بشأنه ، ودعا غلامه ليتولى شأني . . .

وأجده قد اتخذ له كرسيًا وحده يواجه البحر ، وقد أولاني
ظهره ، ولا يفتأ يسرح بنظراته العابسة في عرض الأفق . . .
وقد تلتقي عيني وعينه ، فيحيني على البعد تحية عابرة ،
فيها مزاج من ترفع وإشفاق . . .

وهكذا خلوت إلى نفسي ، في جلستي الساكنة ، لا يعكز
صنفوها شيء ، خالصاً للقرطاس والقلم . . . أدبج « الخواديت »
التي لم تلق من « سقراط » العظيم إلا كل زراية وامتهان !



أفكارنا

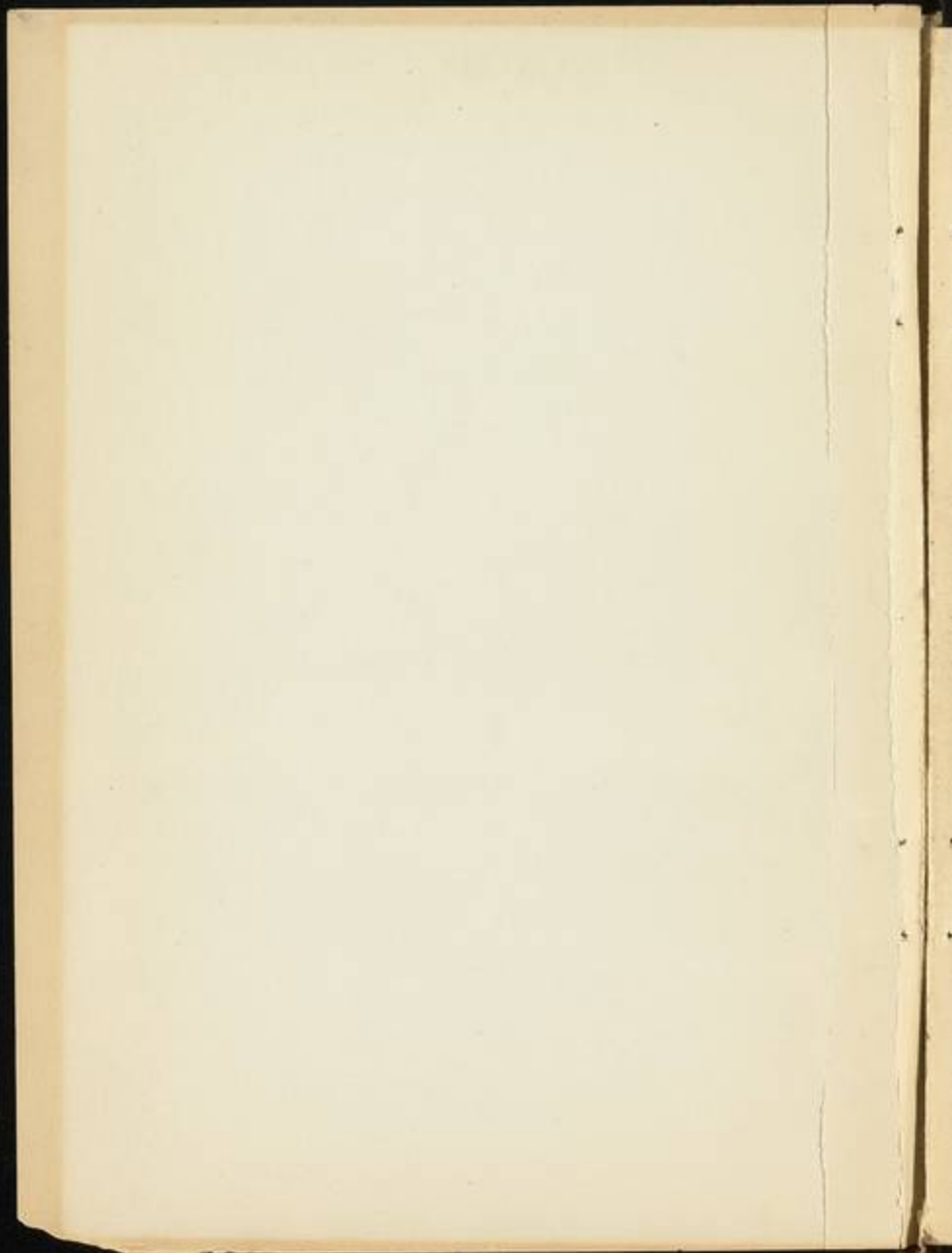
مجموعة من البصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب في جميع مراحل النمو
المتعة والثقافة وسمو النفس .

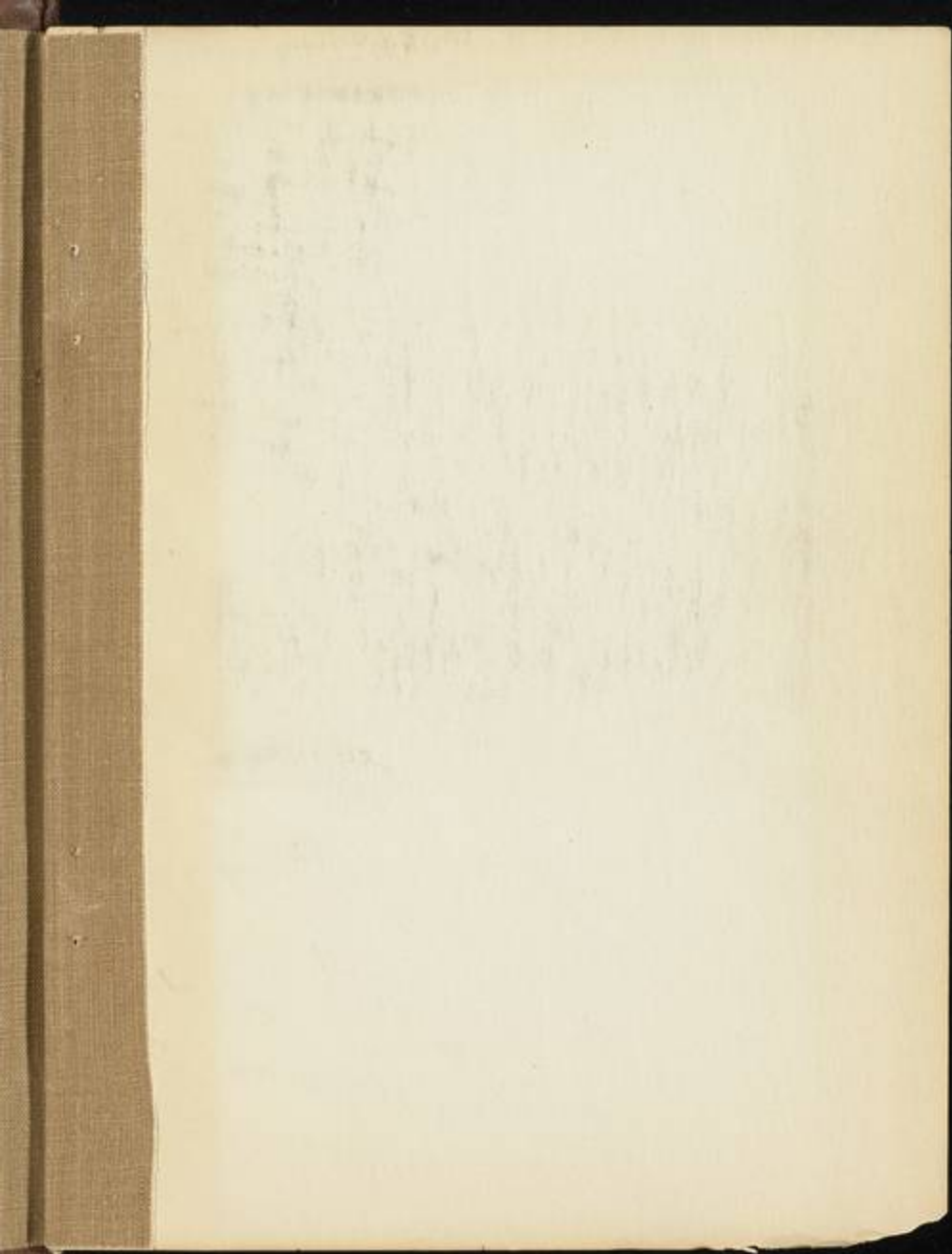
١٢	١	عمرون شاه
١٢	٢	مملكة السحر
١٢	٣	كريم الدين البغدادي
١٢	٤	آلة الزمان
١٢	٥	الأمير والفقير
١٢	٦	كتاب الأدغال
١٥	٧	بينوكيو
١٢	٨	نبوءة المنجم
١٢	٩	روبن هود

تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد





893.7T136

0

BOUND

JUN 27 1957

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58880666

893.7T136 O

Abu Ali al-Farabi wa

893.7T136 - 0